الدّكتور محمّد ناصر

سيرة ذاتية، من مدخل علم البرمجة الزمنية

- **عنوان الكتاب:** د. محمد ناصر، سيرة ذاتية من مدخل علم البرمجة الزمنية
- **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي
- **الطبعة الأولى:** 1440هـ - 2019م
- **مقاس الكتاب:** 140 × 210
- **عدد الصفحات:** 288
- **ردمك:** ISBN 978-9931-735-05-2
- **الإيداع القانوني:** السداسي الثاني، 2019.

محفوظة جميع الحقوق

Copyright © 2019 Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

الدّكتور محمّد ناصر

سيرة ذاتية، من مدخل علم البرمجة الزمنية

د.محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتويات 5
المقدمة 9
الزمنُ معرَّفا ومُعاشًا **17**
تعريف الزمن: 18
صورة الزمن: 21
شروق وغروب 28
المذكرات عصارة السنين: 34
مراحل العمر: 36
الصورة تجسيد لعاديات الزمن: 38
ساعة بداخلك **41**
التربية الأولى (أمُّنا الحنون لالة حمو، بابا صالح الجندي). 42
الرحلات والخرجات واللعب 49
البركة في العمر، ما هو مدلولها؟ (أو حين يربي المجتمع) . 51
ساعة بين حناياك: 55
وقت لحفظ القرآن... وذكرى استظهاره: 57
في ليكول ـ البرنامج الزمني والخرجات الترفيهية: 59
في معهد الحياة: الفتوة والشباب 62
في القاهرة: 64
جامعة القاهرة: 66
مشايخي الذين ربوني على السحَر: 68

الشيخ عدون: 74

زمن العطاء والإثمار **77**

الثانية ليلا: 78
فكرة التفرغ للتأليف، والاستقالة عن المهام الاجتماعية: . . 81
في مدرسة الحياة مدرِّسا: 83
أوقات المطالعة: 86
كرونولوجيا المطالعة: نموذج من مطالعاتي في هذه المرحلة 88

مضيعات الوقت **89**

مِن مضيعات الوقت: (الاجتماعات، كرة القدم،...) 90
الهروب، بحثا عن التركيز: 93
عقدة الجلوس في المقاهي: 95
الانتظار: 96

العطلة والراحة والرياضة **101**

القيلولة وأوقات النوم: 102
عطلاتي الصيفية، كيف أقضيها؟ 103
الغابة والعطلة: 104
الرياضة: 105
الرحلة عبر أوروبا: 106
وقت العائلة والأبناء: 109

بين الديني والاجتماعي **111**

الانفصام بين الدين والمجتمع في العلاقة بالوقت 112
المسجد: 116

البرنامج الزمني للمرأة: 117
التقاعد، والتقاعد المبكر 122

خارج التصنيف **127**

الوقت العمانيُّ: 128
المرض: 129
مع كلام رب العالمين: 131
الابن باباعمي والزمن 134
الغربة قدرنا: الرجل في غير زمانه، وفي غير مكانه: 135

الملاحق **137**

الدكتور محمد صالح ناصر: البنوة البارة، والأبوة الفياضة. 138
الزمن في أدبيات محمد علي دبوز (المراسلة نموذجا) . . 169
كيف تعرفت على محمد بابا عمي؟ 189
نموذج من المراسلات (بين الأستاذ والطالب) 201

شهادات حية عن الدكتور ناصر **211**

تكريم الباحث عن الحقيقة: أ.د. أبو القاسم سعد الله 212
الدكتور الصديق محمد صالح ناصر: **محمد بن سعيد شريفي** . . 217
شهادة حية عن محمد ناصر: أ.إبراهيم مردوخ 220
قصيدة: عذرًا أستاذي!! **د. محمد ناصر بوحجام** 224
الدكتور محمد صالح ناصر القراري: **الشيخ زياد المعولي** . 227
حياة د. محمد ناصر، عبر وتجليات:د. محمد حمدي . . . 231
قصيدة: النصر الميمون: **د. مصطفى بن صالح باجو** 238
رسالة مفتوحة إلى «الدكتور محمد ناصر»: **د. طه كوزي** . . 247
ذكرياتي مع أبي محمد بن صالح: **أبو اليقظان ناصر** 256

ترجمة مختصرة للدكتور محمد ناصر **260**

مراحل التدريس: 261

مواد درسها: 261

الوظائف العلمية والإدارية ما بين (1983-2008): 262

ثالثا: التكريمات والتقديرات: 264

الفهرس الموضوعي لمؤلفات الدكتور ناصر **266**

الأدب والنقد: 266

السير والأعلام 267

تحقيق التراث: 269

الدراسات الفكرية والحضارية: 270

القصائد والدواوين الشعرية: 273

الترجمة من الفرنسية إلى العربية: 274

أدب الطفل 275

مؤلفات الدكتور ناصر (ترتيب ألفبائي) **281**

أدب الطفل (ترتيب ألفبائي) **285**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

كتبت عن صورة الزمن في فكر جملةٍ من العلماء والزعماء[1]؛ وأقرُّ أني ما تردَّدت مرَّة تردُّدي في الكتابة عن صورة الزمن عند أستاذي الدكتور محمد ناصر؛ ذلك أنَّ الذاتي ولا ريب سيتغلب على الموضوعي؛ وإن كنت لا أقرُّ بهذه الثنائية[2]؛ وأنَّ المستوى الوجودي سيقهر لا محالة المستوى المعرفي[3]؛ ومن ثم يصعب اعتبار البحث

(1) انظر- **الزمن في أدبيات محمد علي دبوز**؛ مجلة الحياة؛ عدد 02؛ ص194. الزمن والوقت؛ **نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية**؛ نشر دار النيل، القاهرة؛ واستانبول؛ 2013م. وفيه عن صورة الزمن عند محمد إقبال، وفتح الله كولن. وانظر- **صورة الزمن عند الإمام ابن باديس**؛ نشر كتابك، الجزائر؛ 2017م. وكذلك كتبت عن الفهم الخلدوني في علاقته بحركية الفكر والفعل؛ وانظر- **من الكمون إلى الفعل الحضاري**؛ تأليف بالاشتراك مع طه كوزي؛ نشر كتابك؛ 2015م.

(2) أتبنى مفهوم «التفسيرية» عوضا عن الثنائية المختزلة «الذاتي والموضوعي»، وهو مفهوم طوره عبد الوهاب المسيري في العديد من مؤلفاته، منها «**موسوعة اليهود واليهودية**»، نشر دار الشروق، مصر؛ ط5، 2009م.

(3) لم يحلل عالم ـ فيما اطلعت عليه ـ حقيقة تجاوز الحياة والواقع والوجود للمعرفة والعلم، ولـ«الأكاديم»، و«الإبستيم»، مثلما فعل علي عزت =

عملا علميًّا؛ وقد يكون الأجدر أن يصنَّف العملُ «فيما حول المعرفة» (Metaknowledge)[1] أي في المستوى الفلسفي المتجاوز، ضمن ما سماه البعض «الفلسفة المتعالية» (Transcendent)[2].

غير أني، تفاديا للتعقيد وطلبا للتبسيط، بمدلول برتراند

= بيجوفيتش في كتابه «بين الشرق والغرب»؛ غير أنَّ الجهل بل التجاهل، وأحيانا الحرب المعرفية ضده غيبت الفيلسوف، وهمشته في مجال «نظرية المعرفة». وانظر- **الإسلام بين الشرق والغرب**؛ نشر بافاريا؛ ط2، 1997م.

(1) **ما حول المعرفة، وما حول العلم**: هي الحالة التي يتحول فيها العلم نفسه إلى موضوع للعلم؛ والمعرفة إلى حقل للمعرفة؛ بممارسة عملية الرصد الخارجي للظاهرة العلمية، وللظاهرة المعرفية؛ باعتبارهما قابلتين للملاحظة، والتحليل، والنقد. ولقد طور الدكتور أحمد موساوي هذا المفهوم في العديد من المحاضرات، ولكن لم أطلع على نص مكتوب حوله.

(2) **الفلسفة المتعالية**: فلسفة تقرّ بالروح مصدرا للمعرفة، وتُنسب إلى كانط، وتعود إلى أفلاطون، وتنتهي عند إمرسون؛ على عادة نسبة جميع المفاهيم والمناهج إلى التراث اليوناني ثم الأوروبي؛ ولا نقرُّ بهذه النسبة، لكن لا نملك الأدوات المنهجية لنقده بصفة جزئية؛ وإنما النقد فلسفي معرفي شامل، يستحضر تاريخ النبوة باعتباره كذلك تاريخا للعلم والمعرفة؛ وأنا أرى أنَّ الأصل هو عدم نفي الروح، لا إثباته؛ فالنفي هو المشكلة؛ لأنَّ الإنسان في تاريخه الصحيح جسدٌ وروحٌ؛ وذلك قبل أن ينزل إلى الأرض؛ وقبل أن يمارس وظيفة «العلم والمعرفة»؛ فهو قبل أن «يعلمه الله الأسماء كلها» «نفخ فيه من روحه ثم أمر الملائكة أن يسجدوا له».

راسل[1]؛ أقرُّ أنَّ «البسيط»، أو ما سماه الأدب «السهل الممتنع»[2]، وحتى أحيانا «البديهي» بلغة المنطق[3]؛ أقرُّ أنه أكثر صعوبة من المعقَّد المعرفي، الذي يعمد إلى العلوم متفرقة، فيقتل الظاهرة الإنسانية ـ البسيطة ـ الحيَّة؛ لكي يدرُسها، ويفتتها (ويقتِّتها) لكي يتمكن من التحكم فيها؛ ومن ثم تنتهي البحوث بالأجوف والميت والساكن؛ لتكون بديلا أو عنوانا عن الممتلئ والحي والمتحرك؛ والمفارقة تكمن في أنَّ الظاهرة الإنسانية ظاهرة مركبة[4]، إذا ما

(1) يقول برتراند راسل: «البسيط يكمن طي المعقد، والمعقد طي البسيط» ومن ثم فإنَّ البسيط يستعصي على الفهم أكثر من المعقد؛ وأما ديكارت فيسمِّي القاعدة الثالثة في منهجه الرياضي بقاعدة التركيب العقلي «وهي أن يبدأ الباحث فيها بأبسط الأمور، ويتدرج من البسيط إلى المعقد، وهكذا». وانظر- أحمد مصطفى الحار: **نصوص ومصطلحات فلسفية باللغة الإنجليزية**؛ نشر المجموعة العربية للتدريب، 2009م؛ ص25.

(2) في مجال الفكر هو «النشاط الفكري الذي يبدو لأول وهلة سهلا بسيطا، لا ينتمي إلى أي تعقيد معرفي، لكن إعادة إنتاجه وصياغته لا تتأتى إلاَّ لمن كان في درجة عالية من المعرفة بذلك الحقل» وفي الأسلوب هو كذلك «ما ليس فيه تعقيد، ولا تغريب؛ ولكن ليس من السهل النسج على منواله وإنتاجه».

(3) البديهي: في المنطق، هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب؛ ويطلق على الشيء المعلوم بالبرهان، وقد يكون مرادفا للضروري، أو ما يعرف بـ«العلم الضروري» في مقابل «العلم الكسبي».

(4) الظاهرة المركبة هي التي لا يمكن اختزالها إلى بعد واحد (مادي مثلا، أو روحي) وإنما هي ظاهرة ذات أبعاد مكثفة وقد تكون أحيانا بالغة التعقيد؛ والظاهرة الإنسانية من هذا القبيل، ومن ثم يستحيل أن تعالج بالمناهج =

حاولت استيعابها قتلتها؛ وإذا ما استوعبتها لم تفهمها بالضرورة؛ فيكون «اللافهم» هو المنتهى والمبتغى، مع الاعتراف عن العجز والقصور.

وعوضا عن مدلول القابلية للتحكم في العلم الوضعي، أو القابلية للتفنيد عند كارل بوبر[1]؛ أدافع عن «القابلية للاعتراف»[2] من منطلق الرؤية الكونية[3]، والتوجُّه الإنساني[4]، والمنهجية الإسلامية (القرآنية)[5]؛ وهذا

= والوسائل الإمبريقية التجريبية.

(1) وانظر- كارل بوبر: **منطق البحث العلمي**؛ ترجمة محمد البغدادي؛ المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية؛ ط10، 2006م.

(2) **القابلية للاعتراف**: مفهوم مؤسس على «نموذج الرشد» وعلى مصادر النموذج، بخاصة أعمال مالك بن نبي، وعلي عزت بيجوفيتش، وعبد الوهاب المسيري. وانظر- محمد باباعمي: **العلم والعالم، في نظرية العلم والإدراك**؛ سلسلة خلاصة المعنى، 1؛ نشر كتابك، الجزائر؛ 2014م؛ بخاصة فصل العلم والجماعة العلمية، فهو يمهد لهذا المفهوم.

(3) وانظر- مرتضى مطهري: **الرؤية الكونية التوحيدية**؛ ترجمة عبد المنعم الخاقاني؛ نشر معاونية العلاقات الدولية، طهران؛ 1989م. وعبد العزيز برغوث: **الرؤية الكونية التوحيدية، دراسة من منظور حضاري**؛ الجامعة الإسلامية، كوالالمبور، ماليزيا؛ 2006م.

(4) الاتجاه الإنساني في الفلسفة قد امتدَّ إلى مجالات علم النفس والتاريخ وغيرهما؛ وهو اتجاه يضع الإنسان في مركز الكون، ويبني حوله جميع المعارف والعلوم؛ وفي تعريفه ونسبته جدل كبير. وانظر- عبد الجبار الرفاعي: **النزعة الإنسانية للدين**.

(5) نظم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ما بين 16 و21 أوت 2008، بالقاهرة، =

الاختيار الصعبُ في حاجة إلى مساحة أخرى للعرض والتفسير، والتداول والنقد؛ ليست هذه الورقةُ معدَّة لأجل ذلك.

فمن الخطوة الأولى لصورة الزمن عند الدكتور ناصر نجده يقول: «الزمن يعاش ولا يعرَّف»، إلى أن يرسو بحثنا مع «ثمانون مرَّت»[1]، وفيها يقول:

ثمانون مرَّت - لا أصدق - من عمري
أفي الحلم كانت أم تهاوت، فما أدري؟
زغاريد ميلادي، بأذني رنينُها
وأفراح عُرسي عطرها مالئٌ صَدري
كذلك أيامُ الحياة سريعةٌ
فإن بدأتْ تأتي النهايةُ في الإثر

ولا يدري الكاتب قبل القارئ، تُرى هل ينحو نحو الصرامة المنهجية، متتبعا الأسلوب المدرسي المعهود؛ أم أنه يستجيب لدعاوى «فييرآبند» حين دافع عما سماه «ضد المنهج»[2]؛ ولا أتعجب ولا ينبغي أن يتعجب قارئي

= دورة تكوينية، شارك فيها ثلة من العلماء؛ حول «**المنهجية الإسلامية**»، وقد كنت ضمن الباحثين المكوَّنين رفقة الدكتور إبراهيم بحاز، ممثلين للجزائر؛ وفي أرشيفي المادة كاملة في مجلد مصور.

(1) **بعد الغسق يأتي الفلق** (ديوان)؛ نشر دار ناصر، الجزائر؛ 2018م؛ ص99.

(2) باول فييرآبند: **ضدَّ المنهج: الخطوط العريضة لنظرية لا سلطوية للمعرفة**؛ =

من هذه الحيرة؛ ذلك أنَّ أول وصف للزمن والوقت في تقديري أنه: «غموضٌ في الذات، وحيرةٌ في الإدراك، ووضوحٌ في الأثر».

وإني مع ذلك، سأحافظ على تراتبية الحوار الذي أجريته مع الدكتور[1]، ذلك أني لم أكتف بالمادة المتوفرة في الكتب والوثائق والأشرطة السمعية؛ فرحتُ أنحتُ مادة جديدةً حية، أعترف بعد أن يسرها الله تعالى، أنها من أهمِّ المواد المعرفية التي يتوفر عليها أرشيفي الخاص، وأعتز بالتفرد بها؛ ففي تتبع حركة الزمن وصورته تتبعٌ لأدق تفاصيل حياة المترجَم له؛ ولذا فينبغي اليوم أن أعلن عن ميلاد «كتاب جديد»، «ترجمة جديدة»، «مصدر جديد» لفهم الظاهرة الفكرية والأدبية والإنسانية؛ المتمثلة في شخصية الدكتور ناصر؛ وأقل ما يعرَّف به أنه رجل «جاء في غير زمانه، وفي غير مكانه»، وأنه «يستعصي على الفهم، ولذا فالغُربة قدره، وسوء التقدير قدرُ من حوله» وأوَّل من أخطأ التقدير في حقِّه، طالبًا العفو منه، هو أنا؛

= صدر عام 1975م بالإنجليزية، وترجم إلى عدة لغات بعد ذلك.

Paul Feyerabend: **Against Method: Outline of an Anarchist Theory of Knowledge**; New Left Books, 1975.

(1) أُجريَ الحوار ببيته العامر، حي مليكة قايد، الأبيار، الجزائر العاصمة؛ يوم السبت 4 محرم 1440هـ - 15 سبتمبر 2018م. بحضور وتنظيم الباحث جابر ناصر بوحجام (سبط الدكتور ناصر).

ولقد عاشرتُه لما يزيد عن عقدين من الزمن؛ وأفتخرُ بذلك ولا أزيد...[1].

وإني أعرض على القارئ «اضطراب فهمي» و«جهلي» بحقيقة الدكتور ناصر، من خلال مدخلٍ مثير وبديع ألا وهو «الترجمة ببعدها الزمني»؛ وأستعرض على أستاذي المساحة الأوسع في منظومتي المعرفية؛ أعني بذلك مساحة قُصوري وتقصيري؛ فيما يشبه محاورات طالب لأستاذه (محاورة أرسطو لأفلاطون مثلاً)؛ ورجائي في العفو والصفح اللذيْن يمثلان سمة من سمات المترجم لهُ...

وإيماني عميق بمعنى الاجتهاد في المدلول النبوي لسيدنا محمد ﷺ: «**من اجتهد فأصاب... ومن اجتهد فأخطأ**»[2]... فها أنا أجتهد وأستفرغ الوسع ما استطعتُ؛ فإن «أصِب» فتلك مُنيتي، وإن أخطِئ فذاك مُنتهى نفَسي وقدرتي؛ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(1) انظر- **ذكرياتي ومذكراتي**، تحت عنوان «**كيف تعرّفت على محمد بن موسى باباعمي**»؛ ص503م. وانظر- محمد باباعمي: **الدكتور ناصر البنوّة والأبوة**؛ محاضرة، مخطوطة؛ أرشيفي الخاص.

(2) الحديث في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**».

رحم الله الشاعر الملهم البحتري، حين أنشد:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه

وأوّل الغيث قَطرٌ ثمَّ ينهمرُ...

محمد باباعمي، معهد المناهج

محرم 1440هـ / سبتمبر 2018م

الزمنُ معرَّفا ومُعاشًا

- تعريف الزمن
- صورة الزمن
- شروق وغروب
- المذكرات عصارة السنين
- مراحل العمر
- الصورة تجسيد لعاديات الزمن

تعريف الزمن

الطالب[1]: في تعريف الزمن تسجِّل المدارس الفلسفية اتجاهين أساسيين، هما:

اتجاه يحاول أن يعرِّف الزمن[2]، ويدافع عن إمكانية ذلك، سواءً بالتعريف الفلسفيِّ أو الأدبي أو الفيزيائي...؛

أمَّا الاتجاه الثاني[3]، فيعترف أنَّ الزمن لا يمكن تعريفُه، وإنما الذي نراه هو أثره لا ذاته؛ يقول أحدهم: «حين لا

(1) **الطالب** ـ كما ذكر في المقدمة ـ هو محمد باباعمي؛ **والأستاذ** هو الدكتور محمد ناصر؛ وما يرد في النصِّ هو ما جاء في الحوار مع الدكتور، إضافة إلى قراءاتي المتأنية في أعماله؛ بخاصة المذكرات ودواوين الشعر والمادة المخطوطة التي جمعتها عبر السنين.

(2) من التعريفات المشهورة للزمن أنه «بعدٌ كليٌّ تقاس عليه الخصائص الفيزيائية الأخرى كالحركة مثلا» وهذا تعريف موضوعي للزمن؛ ويسجل ظهور مدرسة التعريف الذاتي للزمن كذلك، فيرى «كانت» مثلا أنَّ الزمن لا يتسم بخاصية من الخصائص الخارجية الموضوعية؛ ولكنه مقولة من مقولات الذهن، أي هو بعدٌ ذاتي لا موضوعي. وانظر- كولن ويلسون وآخرون: **فكرة الزمان عبر التاريخ**؛ عالم المعرفة، عدد 159؛ 1992م.

(3) وهذا الاتجاه هو الذي عرَّف الزمن ذاتيا لا موضوعيا؛ وبعضهم يقول باستحالة تعريف الزمن أساسًا.

تسألني عن الزمن أعرفه، وحين تسألني عنه أنساه»[1].

فهل في رأي الدكتور ناصر الزمنُ يمكن أن يعرَّف، بل هل يمكن أن يعرَف على الأقل؟

الأستاذ: أنا أقول: الزمن يمكنُ أن يُعاش، لا أن يعرَّف؛ فكلُّ إنسان يَعرف (ويعرِّف) الزمن من زاويته الخاصة: كيف يعيشه؟ كيف يتصوره؟ ولهذا لا تتلاقى التعريفات، ولا المصطلحات والمفاهيم، بين اثنين؛ بل حتى أجزاء الزمن ووحداته، مِن مثل السَّحَر، والسهَر، والبكور... تختلف تصورات الناس حولها؛ فمِن باب أولى أن تختلف في كليات الزمن، وفي المعاني الفلسفية الشمولية.

الطالب: يذكِّرني هذا المعنى بمدلول «قطة شرودنجر»[2] التي تعتبر أنَّ المعرفة تقتل الحقيقة، وأنَّ

(1) نسبت إلى العديد من الفلاسفة، ولا يمكن القطع في النسبة الصحيحة؛ ومن ثم صارت مقولة عامة لا خاصة بأحد.

(2) **قطة شرودنجر**: هي تجربة ذهنية صاغها إرفين شرودنجر ليبيّن فيها المشاكل التي رآها بتفسير «كوبنهاغن» وتأثير الوعي الإنساني في عملية الرصد والقياس الفيزيائي؛ خصوصا في الحالات الكمومية: العلبة تحتوي ذرة متفككة، في حال أصدرت الذرة جسيما باتجاه «عدّاد غايغر» ينطلق سم «سيانيد» قاتلا القطة، الاتجاه المعاكس لا يقتل القطة. بدون الاستعانة برصد بشري مباشر تكون حالة الذرة المتفككة عبارة عن دالة موجية باحتمال 50 ٪ إطلاق جسيم بالاتجاه القاتل و 50 ٪ بالاتجاه غير القاتل أي أن حالة =

الذي يصل إليه علمُنا هو تمثُّل للحقيقة، هو الحقيقة مجزأة، هو صورة مفتتة من الحقيقة، هو القطة ميتة؛ لا الحقيقة كاملة، أو القطة حية.

= القطة هي حالة مركبة من الموت والحياة. وانظر- جون جريبين: **البحث عن قطة شرودينجر، الفيزياء الكمية والواقع**؛ ترجمة فتح الله الشيخ؛ نشر دار هنداوي وكلمة، 2012م.

صورة الزمن

الطالب: ثمة كثير من المصادر عالجت «صورة الزمن»[1]؛ فبعضهم مثلا يرى أنَّ الزمن دائريٌّ (التاريخ يعيد نفسه)[2]. وأمَّا الفكر الغربي بعامَّة فيرى أنَّ الزمن ذو صورة خطية، والتطور هو الذي يحكم صيرورته[3]

في التراث الإسلامي نسجل بعض التشوهات، من مثل فهم حديث رسول الله ﷺ: «**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...**»[4] أي إنَّ النزول قدر مقدور على هذه الأمة، وهو أمر حتميٌّ دائم، والتوجه السلبي

(1) وانظر- ولسون: **فكرة الزمان عبر التاريخ**. عبد الصمد زايد: **مفهوم الزمن ودلالته**؛ الدار العربية للكتاب، 1988م.

(2) ثمة جدل كبير في نسبة هذه المقولة إلى صاحبها؛ منهم من ينسبها إلى ديوي، ومنهم من يجعلها من مقولات هيغل، وآخرون ينسبونها إلى ماركس؛ والذي يعنينا أنها تعبر عن رؤية كونية معيَّنة، وأنَّ لها حضورا في البحوث الزمنية، وفي مجال «التصورات والصور الإدراكية».

(3) Étienne Klein: **Le facteur temps ne sonne jamais deux fois**; Poche, 2009; P29.

(4) بهذا اللفظ رواية ابن مسعود رضي الله عنه، وقد جمع أبو نعيم الأصبهاني طرقه في **حلية الأولياء**؛ نشر دار الفكر، دمشق.

للحضارة الإسلامية لا مفرَّ منه؛ كذلك تعامَل الشيعة مع الزمن بفكرة انتظار الإمام الغائب[1]؛ وكان انتظارهم سلبيا[2]، أي يجب أن ينتشر الفساد حتى يظهر الإمام الغائب، ولذا أسعى إلى نشره بكل الطرق وإلى استعجاله ليتعجل حضور الإمام عجَّل الله ظهوره (مثل فكرة المسيح الدجال)؛ ثم انبرى عدد من المصلحين والمجددين، فغيروا وجهة النظر الخاطئة إلى انتظار إيجابي[3]، بأن أعلنوا مع التأصيل أنَّ الإمام لن ينزل إلاَّ إذا وجد صلحاء يدافعون عن الحق، ويمثلون الإسلام في الأرض أحسن تمثيل؛ ثم ينزل على إثر ذلك عاجلا....

الأستاذ: أضف معضلة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب اليومَ؛ ذلك أنه وقف إلى جوار الإنجيليين

(1) غاب المهدي عام 329هـ، والشيعة ينتظرون أن يظهر «فيملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا»، ويعدون العدَّة لذلك؛ ويسألون الله أن يكونوا من جنده، ويستشهدوا في جيشه.

(2) الانتظار السلبي المرفوض هو المكوث دون حراكٍ، وعدم القيام بأيِّ عملٍ تغييريٍّ في مواجهة أمواج الفساد والظلم في الأرض.

(3) **الانتظار الإيجابي** هو حال المنتظرين إمامَهم الغائب، العاملين في غيبته على تمهيد الأرض لظهوره المبارك؛ فهم الممهّدون لظهور المهدي، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات، مثل الرواية الحاكية عن الراية التي تقاتل أعداء الإمام «حتّى تنزِلَ ببيتِ المقدسِ تُوَطِّئ للمهديِّ سلطانَه». وانظر- الكُلَيني: **الكافي**؛ إعداد: علي أكبر الغفاري؛ ط1363هـ. وانظر «شروح الكافي» وهي كثيرة.

المتعصبين[1]، الذين يؤمنون بضرورة تحرير القدس لينزل عيسى المسيح، ولذا وجب تطهير القدس من غير الأمميين (جويم)، حتى يعجل المسيح في النزول من السماء.

الطالب: بعضُ العلماء والفلاسفة المسلمين؛ منهم محمد إقبال؛ يرون أنَّ الزمن حلزونيٌّ؛ لا هو خطيٌّ، ولا هو دائريٌّ؛ أي عندما يتكرر السبب تتكرر النتيجة، أي الزمن يُشبه نفسه ولا يكرِّر نفسه؛ لكن ليس بالضرورة بنفس الشكل، ولا بنفس الحيثيات والمظاهر.

وسؤالي هو: والدكتور محمد ناصر، كيف يرى إلى الزمن؟

الأستاذ: أنا أميل إلى هذا الرأي الأخير؛ وأرى أنَّ الزمن حلزونيٌّ؛ يبدأ من دائرة ضيِّقة، ثم يتوسع في كل الاتجاهات، والفرق بينه وبين الزمن الدائريِّ، هو فرق في

(1) **الإنجيلية**: حركة دينية مسيحية، تتبناها جماعات من البروتستانت المحافظين؛ وهي متشددة في الأخذ بالمعنى الحرفي للنص؛ يربو عدد الإنجيليين عبر العالم أوائل القرن الواحد والعشرين على ثلاثمائة مليون من الأتباع؛ من معتقداتهم: «في كل حين من العالم، تحدث حرب بين الخير والشر، حيث سينتصر الخير بظهور السيد المسيح، ويكون الفلاح للإنجيليين فقط. وأنَّ الإيمان بالحرب في آخر الزمان أو الـ «ارمجدون» وانتصار المسيح في هذه الحرب واستتباب السلام في العالم أمر لا شك فيه. وأنَّ جثمان النبي سليمان يوجد تحت المسجد الأقصى. وأنَّ المسجد الأقصى هو محكمة السيد المسيح ويجب إعادة بنائه».

المنطلق وفي المركز[1]؛ حتى بالنسبة لعمر الإنسان؛ لدينا مثل عاميٌّ رائع جدا، يقول: «ونِّ الأَن أُلتفكَّر لْوَلْعَس، أدِخْزَر مِدَّن قَاعْ أُوهُو دَامَّن» (من لا يتفكر في صغره، يرى الناس كلَّهم على خطأ).

فأنت إذا لم تتذكر فتوتك، أخطاءك، حماقاتك... فإنك ترى الشباب جميعا على خطأ، فقط فكر يوم كنت في مثل عمرهم، فإنك ستفهمهم، وستتقبلهم بالضرورة؛ فكر في ذلك تجد الراحة والطمأنينة مع الآخرين.

أي من لا يعتبر نقطة الانطلاق التي بدأ منها، يعجز عن التعامل مع الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل..

الطالب: هذا المعنى في حدِّ ذاته هو تطبيقٌ للصورة الذهنية التي تجعلُ الزمن حلزونيًّا؛ وإلاَّ فإنَّ الصورة الدائرية جبرية مطلقًا، والنقطة المركزية هي الأصل، منه يتفرع المحيط؛ وأمَّا في الصورة الخطية، فلا مرجعية ولا عودة فيها إلى مبدأ، أو إلى أي نقطة ثابتة؛ هو التغير في شكله المطلق.

الأستاذ: نعم، وأضيف إلى هذا أنَّ التجربة تُنضِج

(1) تُعرف في الرياضيات بالنقطة المرجعية، أو النقطة الثابتة والملحلحة «fixed point»؛ وهي مجال بحث واسعٍ ودقيق.

الإنسان في عمره، فكثيرٌ مما كنتَ تقلق منه ولا تتقبله في عمرٍ ما، ستجدُ نفسك مع التجربة، وبعد مرور الوقت، متقبِّلا له، لا تقلقُ حياله؛ فيصير الأمرُ عاديا جدًّا في مداركك وفي شعورك. ما سبب هذا؟

هل فكرُك تبدَّل؟ لا، مستحيل، فهو ليس موضوعا فكريا.

هل نفسيتك تغيرت وتبدلت؟ نعَم، نفسيتك وأحاسيسُك تبدَّلت؛ ذلك أنك كنتَ حيويا، تتحرك، لا تستكين... ثم تمرُّ الأيام؛ فتجد نفسك، لأي سببٍ من الأسباب، مُقعَدا، وقد فقدتَ حيويتك المعهودةَ، تُلازم الكرسيَّ، تقبِض على عصاك ربما؛ وتنتظر مِن أولادك وممن حولك أن يخدموك، ثم تتوقع منهم الكثير؛ تكره الخروج من البيت[1].

أقول، والله أعلم، وربما أنت أدرى (تواضعا منه) إنَّ الزمن حلزونيٌّ؛ ذلك أنَّ الإنسان نفسَه في فترةٍ من فترات عمرية، يفكر في «النقطة الأولى» من الحلزون، ثم تتوسع الدائرة في مداركه رويدا رويدا... حتى يجد نفسه في أفق آخرَ؛ فـ«النقطة الأولى»، حين كنَّا صغارا، نفكِّر في معهدنا،

(1) يضيف الدكتور في حواره: «وحتى في الجُمَع والعطل؛ حين يطالب الأهل بأن تأخذهم في سياحة، فتقول: رجاءً اذهبوا أنتم، واتركوني وحدي في الدار، وتوكل المهمَّة لأبنائك الكبار في السن؛ وفي مثل هذا أنا في صراع دائم، فحين يرغبون في الخروج للتنزه، أقول لهم: لا أمنعكم، ولكن اتركوني لوحدي فأنا أخرج للتنزه إلى مكتبي وقلمي وقرطاسي».

في مسجدنا، في عشيرتنا، في بيوتنا، في بساتيننا، في بلدتنا... في تلك «الدائرة الأولى» التي نشأنا فيها؛ فهي «النواة الزمنية»[1]، ونقطة الانطلاق نحو آفاق الحلزون البعيدة، فالنواة هي التي تشدُّنا...

فأنت تلاحظ تلك النخلة الثابتة، وأنا دوما أستشهد بالنخلة[2]؛ لأنها هي الإنسان في ثباتها، في ثمرتها... في جميع حالاتها ومكوناتها، وفيما يظهر منها وما يخفى... فالنخلة تبدأ نواةً صغيرة ثم تكبر وتسمق في السماء عالية... فمثلا، بدأتُ في القرارة، ثم سافرت إلى العاصمة، ثم القاهرة، ثم أوروبا، ثم عمان... وفي كل دائرة من الدوائر لديك رؤية مختلفة عمَّا سبق...[3].

(1) **النواة الزمنية**: مفهوم بديع وعميق جدا؛ من صياغة الدكتور ناصر، ويمكن أن يؤلف فيه عمل علميٌّ متميز، من مداخل فلسفية، وأدبية، ورياضية... الخ.

(2) أول ديوان شعر للدكتور صدر عام 1981م عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، عنوانه: «أغنيات النخيل»؛ والعديد من قصائده كان محورها النخلة، ومنها ما لحن وصار من محفوظات الناس في المناسبات: «الشجرة الطيبة»، «يا نخلتي بالرافدين تمددي». وللدكتور مصطفى باجو ورقة حول «النخلة في أدب الدكتور محمد ناصر».

(3) يقول الدكتور مستطردا: «دائما يسألونني: لماذا الشيخ حمو لقمان هكذا مندفعٌ، لا يخشى العواقبَ؛ فأجيب: لأنَّ لقمان يعمل بنظرية لشيخ من بني يسجن يقول: «أحضروا لي رجلا تجاوز «بوهراوة» فأخاطبه «(أي سافر وغادر وادي ميزاب، أمَّا الذي لم يسافر فلا أفهمه ولا يفهمني... فحين سافر لقمان اكتشف عالما آخر يتجاوز الصراعات البسيطة التافهة التي هي =

= سبب تأخرنا في كل المجالات» أقول: «أي إنه انطلق من النواة، وتسلق مع الحلزون إلى أن اكتشف آفاقا أرحَب وأوسع...».

شروق وغروب[1]

الطالبُ: أستاذي، ماذا عن الصورة الشعرية المجازية للزمن عندك؛ فحين يقول الانجليزي: «الوقت هو المال»[2]، فهو يعبِّر عن «رؤية كونية» مادية صلبة[3]، تقوِّم كلَّ دقيقة بالمال، حتى الساعة التي يلتقي فيها الرجل مع أمه أو ابنه ينبغي حسابها ماديًّا، وهي هي مثمرة أم غير مثمرة؟... والبعض منا ينقل مثل هذه المقولة ومثيلاتها؛ ويجهل ما تخفي من بعد قيمي كوني خطير، وهو بعدٌ كامن[4] غير معلن.

(1) بعيد اللقاء نشرتُ مقالا بعنوان: «**مغربُ الشمس... ومطلعُ الشمس... ويبقى شعاعُ الأمل متَّقدا...**» وقارب عدد الذين اطلعوا عليها عشرة آلاف قارئ؛ وكانت التعاليق بالعشرات، كلها تشيد بالدكتور وأسلوبه وأثره الطيب على المجتمع والثقافة. وسأدرج المقالة ملحقا في آخر الكتاب.

(2) Time Is Money: **Cambridge English Dictionary**

(3) **المادية الصلبة**: في تعريف المفهوم انظر- المسيري عبد الوهاب: **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**؛ دار الشروق؛ 2009م.

(4) وانظر- إدوارد هول: **البعد المخفي**؛ قراءة في لغة الإشارة. والمسيري: **الموسوعة**.

ومقولة «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»[1] تعبر عن صورة إدراكية لمجتمعات عاشَت الحروب؛ والسيف دائمًا يتهدَّد الإنسان؛ فإذا غفل نزل عليه السيف وقتله. فيكون السيف صورة مجازية للوقت، ولا تصدق بالتالي على مجتمع ألف السِّلم واستمرأه.

والصورة المجازية «إنك لا تسبح في النهر مرتين»[2] هي صورة لتدفُّق نهر الزمن، من المنبع إلى المصب، وعدم عودته القهقرى؛ وهي أقرب إلى الزمن الخطي المتطور نحو المستقبل بلا هوادةٍ؛ وهي منسوبة إلى التراث الفلسفي اليوناني.

وصورة الزمن على شكل قطارٍ، كلُّ قاطرة هي يومٌ من حياتك، تودِع فيها ما تشاء من عملٍ صالح أو طالح؛ فإذا ما وقَفَت أمامك آخرُ قاطرة (أجلُك) ركِبت؛ لينطلق بك نحو الآخرة؛ وهنالك ستفتح بضاعتك بأمانة ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:49].

فالصورة الأدبية المجازية الشعرية الإدراكية للزمن مؤثرة ومهمَّة جدا، وهي كاشفة عن النماذج الكامنة

(1) من أقوال بعض الحكماء، وعدَّه البعض حديثا خطأً، ونسبه البعض إلى الإمام الشافعي؛ ولكن يبدو في النسبة تكلف.

(2) تنسب إلى الفيلسوف اليوناني هيراقليطس؛ ومن العادة نسبة جميع العلم والحكمة إلى اليونان، وفيه تمحُّل شديد.

لصاحبها؛ فهو لا يحتاج إلى أن يعبر صراحة عن فكرته حتى يُعرف، بل من خلال هذه النماذج نلج إلى عمق فكره وشعوره...

أمَّا حديث الرسول ﷺ مثلا: «**اغتنم خمسًا قبل خمس...**»[1] فيرسم لنا تصورا وهو أنَّ للوقت قيمةً وقدرا، ولكنَّ التقدير ليس ماديا فقط؛ وإنما فيه الماديُّ والمعنويُّ، الدنيويُّ الآنيُّ والأخرويُّ المستقبليُّ... في تناغم وتناسق وتكامل بيِّن.

ماذا عن الصورة المجازية للوقت عند أستاذنا الدكتور ناصر؟

◉ **الأستاذ**: (أطرق طويلا ثم قال):

«الزمن هو شروق الشمس وغروبها عندي، ولقد سميت ديواني الأخير "**بعد الغسق يأتي الفلق**"[2]؛ ولذا تجدني حريصًا على السفر إلى شاطئ «كاب جنات» (بومرداس) ومشاهدة الشمس فجرًا وهي تُلامس سطحَ البحر المتوسط، أو أصيلًا وهي تودِّع صفحة الماء الأزرق الفتان؛ ولي قصيدة بعنوان: «ساعة من الجنة في كاب جنات»[3] عبَّرت

(1) رواه الحاكم وصححه.

(2) نشر دار ناصر؛ 2018. وهو ديوانه الأخير.

(3) **بعد الغسق يأتي الفلق**؛ ص101.

فيها عن هذه المعاني[1]؛ ولقد كنت غارقا في التأمل بين لونين أزرقين: زرقة السماء وزرقة البحر؛ والذي يعجبني أنه المكان الوحيد الذي أشاهد منه شروق الشمس في البحر، وغروبها في البحر، من نفس الموضع».

الطبيعة... الطبيعة... لها تأثير قوي جدا في نفسي... انظر إلى مكتبي هنا، فإني منه أرمق إلى السماء في صفائها، وهذه نصيحة أستاذي الدكتور شكري فيصل[2]، حين زارنا في العاصمة، الطابق السابع شارع ذبِّيح شريف، ولاحظ أنَّ مكتبي لا يطل على السماء، فقال: محمد أنصحك، ألا يكون مكتبك في مكان لا ترى منه السماء... فامتثلت لنصحه، ومن يومها لم أغادر هذه النصيحة الغالية...

(1) يقول الدكتور: تعلَّمت العائلة مني هذا الفعل، بخاصة بعد رمضان مباشرة، في شوال؛ فإنهم جميعا يحضرون أنفسهم للسفر إلى كاب جنات، والاستمتاع بجمال الشروق والغروب هناك... النساء والرجال جميعا، في موكب مهيب من الجمال والجلال... ثم يضيف: مرَّ عليَّ عامل في فندق كاب جنات، ورأى المصحف بين يدي، وظنه كتاب مطالعةٍ، فقال: حين تكون هنا لا تفتح الكتاب، انظر إلى السماء، واترك الهموم والمشاكل هنالك؛ فقلت له: صدقت، ولم أخبره أنه مصحفٌ.

(2) من أعلام بلاد الشام؛ ولد بدمشق عام 1919م، وتوفي سنة 1985م؛ ودرَس ثم درَّس في القاهرة، وقد أشرف على الدكتور ناصر في بحوثه الجامعية، بخاصة أطروحة الدكتوراه في الآداب عام 1972م؛ وله العديد من المؤلفات الأدبية المتميزة. وانظر- محمد ناصر: **مشايخي كما عرفتهم**؛ نشر دار ناصر، 2013م؛ ص201.

واعتبرتها قاعدة في حياتي...

الطالب: ماذا يعني الشروق؟ وماذا يعني الغروب في قاموسك الأدبي؟ ثم إني أتذكر قصيدة رائعة بالميزابية للشاعر عبد الوهاب فخار؛ الذي يقول فيها عن بداية الانفتاح في الجزائر، وهو يرى السماء «أتَـوّات طِيط نتفويت ترسو دنّج أورير دَغباشّا يوليد أمّغ تيسمسين؟» (إني أرى الشمس في الأفق، ولا أعرف هل هي شمس ضحًى أم شمس مغيب؟)[1].

الأستاذ: (أجاب وقد التمع من عينيه بريقٌ حاذق):

أنا أنظر إلى الحياة بنظرة تفاؤلية؛ أمَّا الشروق فهو أول اليوم وعنوانُ الأمل، هو الميلاد وهو الحياة؛ وأمَّا الغروب فهو أوَّل يوم جديدٍ وعنوان أملٍ عتيد؛ إذن فثمة مطلعان للشمس في نظري، وليس ثمة مغربٌ للشمس كما يعتقد الناس؛ والشروق يولد من رحم الغروب؛ كما أنَّ الأمل يولَد من رحم الشمس طالعةً أو نازلة، مقبلة أو مدبرة.

الطالب: في قصيدة «ساعة من الجنة في جنَّات» يقول الشاعر الدكتور:

وتشرق الشمس تُبدي حُسنَ طلعتها
تسبِّح اللـهَ بالأنوار مُصطحِبا

(1) هي أوبريت لم تنشر في أي ديوان من دواوين الشاعر عبد الوهاب فخار.

وفي الأصيل تُساقينا الوداعَ رؤًى
فيحضِن البحرُ حَسناء تشعُّ صبَا

ويقول:

فللشروق تسابيحٌ مهلِّلة
وللغروب ترانيمٌ شدَت طربَا
وكل خفقة موج ثَم ساجدة
ووشوشاتٌ توالي الحمد والرغبا

ومن ثم يستحيل الوقت والزمن في قاموس الشاعر إلى «شروق وغروب»، ويتجلى على صورة حركة دائبة للكون؛ لكنها ليس تلك الحركة المادية الفيزيائية الميكانيكية الموضوعية؛ وإنما هي حركة «تُبدي حُسنها»، «تُساقي»، «تحضن»، «تشع صبًا»، «تهيم وتعشق»، وهي مع ذلك «مهللة»، «مسبِّحة»، «مترنمة»، «شادية»، «مطربة»، «خافقة»، «موشوشة»، «ساجدة»، «حامدة»، «راغبة»... هي حركة موصولة بخالقها، متوجهة إلى باريها، تنطوي على رسالة «الجمال والجلال» لبني الإنسان؛ حتى يجد السعادة تغمُره وهو الغارق بين ثناياها، الناظرُ في مغزاها، بموجب: «قل انظروا»، وعلى وقع: «أفلا ينظرون»...

المذكرات عصارة السنين

الطالبُ: أستاذي، صدرت مذكراتك قبل سنين بعنوان «**ذكرياتي ومذكراتي**»[1]، ولا ريب أنها سرَّعت الأعوام والأيام أمام ناظري قارئها؛ فصِرنا من خلالها نقرأ الدكتور محمد ناصر على «خطِّ الزمن»؛ فكيف تعتبر تلك المذكرات، وكيف لخصت زمنًا طافحا بالأعمال والإنجازات، وأحيانا بالحسرة والإخفاقات؛ في صفحات قليلة مثيرة للاهتمام والجدل المعرفي؟

الأستاذ: «ذكرياتي ومذكراتي... هي عصارة تلك السنين كنتُ أستعرضها من ذاكرتي كما يُستعرض شريط الصور؛ وكنت أحيانا ألجأ إلى الوقوف عند تفاصيل تلك الصور، أعرضها بأمانة وصدق، وكأني أعيشها اليوم».

«ولعلي أسارع إلى القول إنَّ ما اعتمدتُ فيه على الذاكرة أكثر حرارةً في تصوير المشاعر، وأكثر صدقا من الناحية العاطفية؛ بينما ما اعتمدتُ فيه على المذكرات، يعتمد الوصف والعرض الخارجي، ولا يلج إلى طوايا

(1) نشر دار ناصر، الجزائر؛ 2014م.

العواطف إلا قليلا»[1].

الطالب: ألا يمكن أن نعتبر جملة من مؤلفاتك الأخرى عبارة عن «مذكرات»، فيها «الحوصلة» و«التقييد»، و«التقييم»، و«المحاسبة» من مداخل وتصنيفات شتى؛ من مثل كتاب: «مشايخي كما عرفتهم»، وما فيه من علاقة حب وود وصفاء مع أساتذتك ومشايخك: الشيخ دبوز، الشيخ بيوض، الشيخ عدون، الدكتور شكري فيصل...

وديوان الشعر نفسه، الذي يحكي مراحل العمر باعتماد الصور الأدبية الرائعة: «فرحة النصر»، «في ساحة الأمير»، «إلى بنت الأوراس»، «آخر العنقود»، «عزوبة الخمسين»، «ثمانون مرَّت»...

الأستاذ: نعم، من جملة ما ذكرتُ في مقدمة ذكرياتي ومذكراتي: «إني كثيرا ما أحيل إلى مؤلَّفي الشعري، الذي جمعتُ فيه دواويني الشعرية... ومن هنا فإنَّ أشعاري ـ فيما أحسب ـ لها علاقة وطيدة بتلك الذكريات البهيجة والحزينة، الفردية والجماعية؛ تسجل آمالي وآلامي حيثما حللتُ ونزلتُ... وهي تصور تلك الذكريات، وتسجل أحداثها بلسان العاطفة الصادقة، أو المشاعر الفياضة؛ ولهذا أعتبرها من هذا الجانب مكملا لا غنى عنه لفهم تلك الذكريات...»[2].

---

(1) ص07.

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ج1/ ص11-12.

مراحل العمر

الطالب: في منهج تقسيم البحوث والدراسات تسجل مدارسُ مختلفة، بين مدرسة صارمة رسمية، وأخرى متسامحة عفوية؛ وبين هذه وتلك تقع أعمال الدكتور ناصر؛ فهو في «الشعر الجزائري»، و«أبو اليقظان وجهاد الكلمة» ـ مَثلا ـ موضوعيٌّ أكاديمي من الطراز العالي؛ ثم هو في «ذكرياتي ومذكراتي» و«مشايخي كما عرفتهم» ذاتيٌّ منفتح، قريب من القارئ في عفوية ويسر.

فكيف كان تقسيم المذكرات من حيث الحقب الزمنية والفصول؟

الأستاذ: لقد قسمت مذكراتي هذه إلى «ملفات حسب مراحل العمر التي يمرُّ بها كلُّ إنسان:

- مرحلة الطفولة (1938-1954).
- مرحلة الفتوة (1954-1962).
- مرحلة الشباب (1962-1966).
- مرحلة الكهولة في رحاب الجامعة الجزائرية (1971-1991).

- مرحلة الكهولة: الرحلة إلى عُمان (1991-2004).
- مرحلة الشيخوخة (2004-2013).

الأستاذ (يواصل): ورغم اجتهادي وحرصي على ألا تتداخل المراحل حين عرض تلك الذكريات والمذكرات، وبناءً على بداية ونهاية كلِّ مرحلة، فإنَّ التداخل بين المراحل في العقود كان أمرًا لا مفرَّ منه، ومن ثم فضلتُ تقسيم الملفات إلى ستة[1]، ويكاد يكون كل ملف خاصا بعشر سنوات من عمري تزيد أو تنقص قليلا»[2].

(1) ورد في المقدمة «سبعة» لكن حين تتبعت المذكرات وجدتها ستة لا سبعة، وهي ستة فصول كما بينتها في الأعلى.

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص09.

الصورة تجسيد لعاديات الزمن

الطالبُ: للدكتور ناصر علاقة حميمية مع الصورة، وهو صاحب النفَس العلمي التراثي؛ بخاصة الصورة القديمة، باللون الأبيض والأسود؛ والتي رصَّع بها مذكراته، وبعض مؤلفاته الأخرى؛ فماذا تعني الصورة في تقديرك، أستاذي؟ وهل للصورة علاقة بالزمن: توقفه؟ تعيده؟ ترسمه؟ تجدده؟

الأستاذ: أقول وأؤكد على هذا المعنى: «إنَّ الصورة على ما أحسب تتحدثُ عن كثير مما لم تسجله الكلمة أو لم يصفه القلم؛ فهي الشاهدة الناطقة على **تجسيد عاديات الزمن** وتحولات المرء من طفولة إلى شباب، إلى شيخوخة؛ وفي هذا عبرة نتأمل من خلالها مسؤولية الزمن في عواتقنا؛ نسأل به أنفسنا قبل أن نُسأل، كما قال رسولنا الكريم: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربعٍ: عن عمره فيما أفناه...**»[1].

نسأل الله الثبات عند السؤال، والإخلاص في الحال

(1) رواه ابن حبان والترمذي.

والمآل، والقبول عند عرض الأعمال»[1].

الطالب: كلَّما تعرضت أستاذي للعُمر، وللوقت، وللعمل، ولكلِّ ما له صلة بحياتك، تختمه بالدعاء لله تعالى أن يتقبله، وأن يرزُقك حسن الخاتمة؛ فهل أنت بهذا تؤكد على الغاية التي هي «نيل القبول ورضا الله تعالى»؟.

الأستاذ: نعم، ولقد قلت فيما قلت: «ليس الشأن في كثرةِ العلم، وإنما الشأنُ في التوفيق الذي يَصحب ذلك العلم»؛ وهذا ما أعتقده وأومن به، وأسأل الله أن يثبتني عليه.

الطالب: هذه العبارة تحولت إلى «أيقونة» بلغة العصر، وإلى «شعارٍ» باللغة الأدبية؛ ولقد علَّقناها إطارا في معهد المناهج، وجعلناها ـ قبل ذلك ـ من مرتكزات غايتنا ورسالتنا تأسيا بك، وتعلُّما منك أستاذَنا؛ تماما مثل المقولة الشهيرة للشيخ عدون رحمه الله تعالى، وهي دائما في موضوع الزمن وحركيته، والتي يقول فيها وهو في المائة من عمره: «إننا أوجدنا حلولا لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا حلولا لعصركم».

بارك الله فيك، وفي عمرك؛ وأبقاك ذخرا للدين والأمة والوطن...

(1) **ذكرياتي ومذكرات**؛ ص13-12.

ساعة بداخلك

- التربية الأولى (أمُّنا الحنون لالة حمو، بابا صالح الجندي المجهول)
- الرحلات والخرجات واللعب
- البركة في العمر، ما هو مدلولها؟ (أو حين يربي المجتمع)
- ساعة بين حناياك
- وقت لحفظ القرآن ... وذكرى استظهاره
- في (ليكول) ـ البرنامج الزمني والخرجات الترفيهية
- في معهد الحياة: الفتوة والشباب
- في القاهرة
- جامعة القاهرة
- مشايخي الذين ربوني على السحَر
- الشيخ عدّون

التربية الأولى

(أمُّنا الحنون لالة حمو، بابا صالح الجندي المجهول)

الطالب: أستاذي، ماذا عن النشأة الأولى في رحاب الأسرة؟ وما هو تأثير الأمِّ عليك في علاقتك بالوقت؟

الأستاذ: أمي الحنون لالة حمو[1]، هي في دار العائلة[2] أوَّل من ينهض من الفراش وآخر من يأوي إليه،

(1) لالَّه بنت حمو حمدي أوباله، (1907-1980)م، تعتبر في بيت آل بربوشه كلهم قطب الرحى ومحرك العائلة، ودورها في العشيرة كلها لا يقل عن هذه المنزلة؛ فكان بيتها مقصدا لذوي الحاجات، وكان النسوة ينادينها (لَالَّاهُم) لحكمتها، وسداد رأيها، وحزمها، ونشاطها، وطيبة أخلاقها. وعرفت بشخصيتها القوية الحازمة التي لا تعرف الكسل ولا التسيب، وتكره الإهمال والفوضى والتسوف كرها شديدا، كما عرفت بحبها للكلمة المنغمة الطيبة الطروب حبا جما وكثيرا ما طلبت من ابنها محمد أن يقرأ لها أشعار (المجذوب) لما فيها من حكمة وبعد نظر، ويشير د. محمد: «وقد تكون موهبتي المتواضعة في أداء الأناشيد وكتابتها بعض ما ورثت من أمي الحنون».

(2) الوالد: صالح بن سليمان بن الحاج موسى (بابا صالح) (1895-1976م). أبناؤه بالترتيب: موسى، سليمان، عيشة، محمد، حمو، إبراهيم، مامية، أحمد.

أكان الزمن صيفا أم شتاء، قصرت الليالي أم طالت[1]؛ أمَّا برنامجها اليومي فيبدأ قبل الفجر بساعة (غِيرُو) لتهيئ قُلَّة الماء الكبيرة فتسخِّن الماء للوضوء لأفراد البيت، ولا تكاد تفرغ من صلاة الصبح حتى تذهب لإعداد فطور الصباح؛ وفي الشتاء تضع غطاء على رأسها (الشَّالْ)[2] بكيفية تدلُّ على الحزم والنشاط؛ وهي تحلب عَنزاتها، ثم تجلس إلى مطبخها (الكوزِينَةْ) تهيئ الخبز والحليب والقهوة لكل أفراد العائلة كبيرهم وصغيرهم، وقد يتجاوزون أحيانا العشرين نفرًا.

وما إن تنتهي من إعداد الفطور حتى تدلف إلى منسجها الذي ينتظرها حيث تجلس على دكَّة[3] المنسج... وتظل والدتي منكبة على منسجها لا تغادره إلاَّ لطعام أو صلاة أو

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص58.

(2) الشَّالْ: أصل الكلمة فرنسية (châle)، ثم جرى استعمالها في العربية الدارجة بالجزائر، وكذا في اللغة الميزابية؛ وهو قطعة قماش أو صوف كبيرة، توضع غالبا على الكتفين، أو على الرأس، وهي دون الحجاب، وتستعمل عادة في البيت مع المحارم.

(3) الدكَّة: مقعدٌ مستطيلٌ من خشبٍ أو حجرٍ، غالبًا يُجْلَس عليه والجمع: دِكَاكٌ. والدكة في العمران بناء من الحجر أو الطابوق أو غيره؛ مُعدّة للجلوس واستقبال الضيوف وخصوصا الجيران. تكسى الدكة عادة بالقُماش، أو تُصفُّ عليها وسائد للراحة أثناء الجلوس. كان بيت الرسول في مكة مزودا بدكة كان يجلس عليها أحيانا غير المجلس الداخلي. ودكة المنسج تكون وراءه وتساعد المرأة في الجلوس بلا انحناء.

زيارة إلى أختها خالتي منة...[1].

على أن وتيرة العمل اليوميِّ لوالدتي قد تضطرب أحيانا عند الحوادث، كموت أحدِ الأقارب، أو عرسِ أحد أبناء العشيرة أو الجيران...

وشخصية والدتي الحنون ارتبطت بذاكرتي الطفلية بالنهوض الباكر قبل الفجر أحيانا للذهاب إلى المدرسة، وأحسب أنَّ والدتي كانت تُعاني مني أحيانًا لِكَسَلي وتباطُئي عن النهوض من الفراش ولاسيَّما في فصل الشتاء القارس...[2].

الطالب: وكيف كان برنامجك اليومي بمراقبة لالة حمو رَحِمَهَا اللَّهُ؟

الأستاذ: لا زلتُ أتذكر ذلك النهوض المبكر لوالدتي أولا، ثم لأفراد العائلة جميعهم؛ ذلك النظام ولاسيما في فصل الشتاء القارس هو الذي علَّمني النشاطَ والحيوية... ونظلُّ بالمدرسة مع حفظ القرآن حتى السابعة والنصف صباحًا، نُسرع الخطى بعدَها إلى المكتب الفرنسيِّ الذي ينتظرنا على الساعة الثامنة، ولا يبقى بين أيدينا سوى نصف ساعة لتناول فطور الصباح في دُورِنا؛ وترى

(1) نفسه؛ ص51.

(2) نفسه؛ ص53.

التلاميذ يقطعون المسافة ركضًا وسعيًا حتى لا يفوتهم وقت الدخول في المكتب الفرنسي الذي لا يتهاون في طرد المتأخرين والمتسكعين[1].

ثم يضيف **الأستاذ** عن والدته وغرس أهمية الوقت في حياته، ويقول: إنَّ أمي كانت تحرِّضني على الحفاظ على الوقت بقولها: «لا تؤجل عمل اليوم إلى غدٍ»[2]...

ونفس المعنى ذكره الأستاذ في **مذكراته**، ومما ورد فيها:

«وهي ـ أمي ـ طالما رددت علي إن لم أقم بواجباتي المنزلية كما تريد: «إنَّ التسويف من علامات الشرِّ». وتكون هذه الكلمة وحدها كافية لمراجعة نفسي ولوْمها على إهمالها».

◙ **الطالب**: وماذا عن الوالد (بابا صالح)؟

---

(1) نفسه؛ ص70.

(2) لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد: حكمة عربية قديمة، اعتبرها البعض حديثا، وهي ليست من كلام رسول الله ﷺ؛ ويوافقها في علم البرمجة الزمنية قاعدة «العمل في وقته»، ومن أدلتها حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال لرسول الله ﷺ: «أيُّ العمل أفضل؟»، قال: «**الصلاة على وقتها**». وفي حديث موقوف قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ لله حقّا لا يقبله بالليل، ولله في الليل حقّا لا يقبله بالنهار». ولقد حلّلنا هذه القاعدة في كتاب «**علم البرمجة الزمنية**» وانظر- ص199 وما بعدها.

الأستاذ: تحدث الشيخ بيوض في جنازة الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن خصائصه الإصلاحية ونعته بأنه (الجنديُّ المجهول)، من وجهاء القوم في عشيرة البلات، وعضو في مجلس إدارتها، وعضو دار الجماعة التي كانت تضم أعيان القرارة. يتميز بشخصيته الصارمة الجادة ولاسيما في حرمات الله؛ حتى كان بعض أصدقائه في الإدارة يدعونه بالدركي (أَجَدَرْمِي) لصراحته، وعدم تملقه أصحاب المواقف المتهاونة أو المتساوفة. كان قليل الاستقرار في القرارة إذ كان تاجرا في أول حياته في مدينة العلمة (سانت آرنو) ثم انتقل في بداية الثلاثينيات إلى مدينة بسكرة قبل أن ينتقل حوالي 1947 إلى العاصمة. كان مثالا لحبِّ أولاده وعائلته وأسرته، كان يُكِنُّ لهم المودة والرعاية اللازمين ويقوم بواجباته المادية فلا يهمل أسرته بما يحتاجونه من نفقة.

شُهد له بكرمه وجهوده الإصلاحية، وقد نظم الشيخ أبو اليقظان قصيدة بمناسبة زفاف ابنيه موسى وسليمان واختار لها في ديوانه عنوانا له دلالته: «مهرجان الإصلاح عرش آل بربوشه الكرام» ومطلعها:

غـادة الـوادي اسمعينا واضـربـي الـعـود حنينا
إيـه يـا «صـالـح» يـا فخر الـشـبـاب الـنـاهـضـيـنـا

عندما كان في بسكرة اشتهر محله فكان يأتيه الزبائن

من كل مكان، وينزل به الضيوف ولاسيما أعلام الحركة الإصلاحية من القرارة وغيرها، وقد كان المصلحان العطفويان السيد الحاج محمد الشَّرح، والشيخ سليمان بن الحاج داود من أصدقائه.

ولي قصيدة أرثي فيها والدي (بابا صالح)[1]، أهديتها له في الذكرى الثلاثين لوفاته، ومما جاء فيها:

أبتاهُ في خلدي تعيش ولوْ طَوَتْك
عن العيون مدافن وصفائح
أبتاه ما هان الفراق وما نسيتُ
فأنت في نبضي الخفوق الجامح

ثم أقول:

فمشايخ الإصلاح بيتُك بيتُهُم
شهدت (ببسكرة) الكفاح مطامح

الطالب: وماذا عن علاقته بالزمن؟

الأستاذ: الفضل في الارتباط بالمسجد يعود إلى المجتمع، وإلى والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي كان ملازما للمسجد، بل كان «حمامة المسجد» كما يقال؛ لا يغادره حتى يعود

(1) ديوان «**الأعمال الشعرية الكاملة**»، نشر دار الريام للنشر والتوزيع، ط1، 1431-2010هـ؛ ص439.

إليه؛ ثم إنَّ الفضل يعود إليه أنه اختصر لي العمر، بجعله لبيتنا ملتقى للعلماء والمشايخ والفضلاء؛ ومنهم كنتُ آخذ، وإلى مجالسهم أرنو، وأسترق السمع حتى فيما يدور حولهم مما هو فوق عمري؛ وبهذا زرع فِيّ حب الإيمان ومرابعه، وحب العلم وأهله.

الرحلات والخرجات واللعب[1]

الطالب: هل لك أستاذي أن تصف لنا علاقتك بالرحلات والخرجات واللعب في هذا العمر؟

الأستاذ: نعم، إنَّ حرص والدتي الشديد كان مانعا لي عن كثير من الرحلات والخرجات واللعب مع خلاني ولاسيَّما كرة القدم التي ظلت طول حياتها تكرهُها، وترى الأوقات التي أقضيها في ممارستها مضيعة للوقت، وكانت دائما تدعو الله أن ينزع من قلبي حبَّ الكرة لأتفرغ لشؤون البيت وأنكبَّ على دراستي، واستجاب الله دعاءها بعد أن أصبتُ في رجلي اليمنى سنة 1958م، مما منعني عن ممارسة هوايتي المفضلة «كرة القدم» إلى الأبد[2].

(1) يعنى «علم اجتماع الفراغ» (sociologie du loisir) بالوقت الذي يتحرر فيه الإنسان من العمل اليومي، ومن الالتزامات بكل أنواعها. ومن أشهر الكتب فيه:

Dumazedier Joffre, *Vers une civilisation du loisir?*. In: *Population*, 18e année, n°1, 1963.

وباللغة العربية نطالع: علي محمد: **وقت الفراغ في المجتمع الحديث**؛ دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر؛ 1981.

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص54.

ووقت الراحة أيام الآحاد حيث لا دراسة بالمكتب الفرنسي، من أحبِّ أيام الأسبوع إلى قلوبنا نحن التلاميذ؛ لأنه اليوم الأسبوعي الوحيد الذي لا نقوم فيه باكرين من أفرشتنا؛ ثم لأننا نجتمع للعب الكرة أو للسباق أو للعب الكرات الصغيرة «Les Billes»[1].

(1) نفسه؛ ص71. ومعلوم أنَّ العطلة الأسبوعية كانت يوم «الأحد» في الجزائر، من عهد الاستعمار الفرنسي، إلى غاية تحويله بأمر رئاسي أصدره الرئيس هواري بومدين في 11 أوت 1976؛ والذي حدَّد يوم الجمعة يوم عطلة عبر كامل التراب الوطني. ولقد كانت العطلة يومي الخميس والجمعة، ثم تحولت إلى الجمعة والسبت عام 2009.

البركة في العمر، ما هو مدلولها؟
(أو حين يربي المجتمع)

الطالب: حين نسجل ما أنجز الدكتور محمد ناصر من أعمال جليلة، من تأليف، وتعليم، وتربية، وذرية، ومشاريع... فإنَّنا نتيقن من مدلول البركة في العمر[1]؛ نسأل الله أن يبارك فيما تبقى من عمره الطيب الزكي.

لكن، للبركة ضريبة من التنظيم والصرامة؛ مِن العمل سَحرا، ومنع النفس من الراحة... كيف تفسِّر أستاذي هذه البركة؟

فمثلا، أنت متفرغ للتأليف والكتابة، والمشكلة التي نعاني منها اليوم أنَّ عددا غير يسير من أساتذة الجامعة لم يعد لهم اليوم وقت للتأليف، فهم بين أوراق للتصحيح، وأسفار بالمنحة، ومشاغل أخرى... إلا التأليف والكتابة

(1) وانظر- محمد بن موسى باباعمي: **مفهوم الزمن في القرآن الكريم**؛ مبحث «الزمن المبارك»؛ نشر دار الفكر، بيروت؛ ط1: 200؛ ص275 وما بعدها. ودليل الزمن المبارك قول الله تعالى: ﴿...إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ...﴾ [الدخان:1-5]، وحديث رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ بارك لأمتي في بكورها**» رواه الترمذي، كتاب البيوع، حديث رقم 918.

التي هي ثمرتهم أصلا...

وحين التقيتُ ببعض من سافر إلى عُمان، قلت لهم: لمَ لا تؤلفون وأنتم المشتغلون بالعلم؟ فتعللوا بعلل كثيرة واهية؛ ثم قلتُ لهم: هل هي عُمان التي كان فيها الدكتور محمد ناصر، وألَّف ونشر، أم هي عُمان أخرى؟

الدكتور: أنا أعتقد ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه البذرة هي التي تربَّينا بها وعليها مِن صِغرنا، في العائلة والمجتمع؛ نستيقظ قبل الفجر للذهاب إلى المدرسة القرآنية، ثم من درسٍ إلى درس، ما بين المدرسة الحرة والمدرسة الرسمية (ليكول) «حْبَل عْلى جرَّارة» إلى أن نخلُد إلى النوم ليلا متعَبين مرهقين؛ وليس في قاموسنا شيء من تضييع الوقت، أو وقت الفراغ أبدا...

كأنك تشعر أنَّ والديك، وأساتذتك، ومشايخك، وبيئتك... يقولون لك: «إياك أن تضيع ثانية من عمرك».

والمنطلق هو قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا تزول قدَما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه...**» الحديث[1]،

(1) وتتمة الحديث: «... **وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه**». رواه ابن حبان والترمذي. ويمكننا أن نسجل بأسف شديد أنَّ مثل هذه الأحاديث لم يعمل فيها لتكون قاعدة لعلم البرمجة الزمنية، وإنما عمدنا إلى قواعد مستوردة وأنزلناها على حياتنا؛ وتركنا مصادرنا للحفظ والوعظ والتبرك.

وهي تربية دينية امتزجت بالمجتمع في يومياته؛ فكانت هذه البيئة والمحيط هو المربي الحقيقي؛ لأنَّ الناس إذا لم يحرصوا على الزمن ألاَّ يضيعوه، فإنهم لا يُنتجون... فأنت حين تقوم للدراسة سَحَرا، تجد كذلك الفلاح وهو متوجِّه في هذا الوقت إلى حقله... وتسمع حوافر الدوابِّ تحمل البركة إلى مواطن العمل مع سواد الليل، ولا يشتكي ذلكم الفلاح ولا يتأفف، وهو سعيد بذلك...

هذا الوسواس الذي رضعته أين نفعني؟

نفعني عندما سافرتُ إلى القاهرة، حيث كنت حرًّا، لا أحد يُراقبني: لا أمًّا ولا أبًا، لا شيخًا ولا معلمًا؛ لا أحد يحاسبك... فأنت حرٌّ فيما تأتي وما تذر؛ غير أنَّ ثمة منبِّها شحنوه ثم ركبوه في قلبك، وقالوا لك: سافر حيث شئت... ذلك أنَّ المنبه هو الذي يوقظك في السحَر، في ساعة ينام فيها الناس جميعا، وأنا متيقن أني إذا لم أستجب لنداء المنبه فإن ذلك اليوم سيكون يوما أسودا[1].

(1) استطرد الدكتور ليبين أنَّ ذات المعاني تنتقل من أب لابنه، من جيل إلى جيل؛ وقصَّ عليَّ هذه الحادثة مع ابنه يحيى، فقال: «كنت مع ابني يحيى هنا، إلى جواري، على سطح البيت، وقد كان في تركيا هو وأهله وأبناؤه في رحلة سياحية، فقلت له سائلا: حين تقوم من النوم، وليس أمامك برنامج مسطر لذلك اليوم، كيف تجد نفسك؟ فأجابني: ذلك اليوم كله سيذهب سدى ويضيع... قلق، اضطراب... قلت له: هنا تعلم أنَّ البرمجة لها معنى كبير جدا، ولذلك بلّغ هذا المعنى لأبنائك مني، أنا جدهم، من جيلنا إلى جيلهم =

= من خلال جيلك. فقال: سأقص عليك حادثة من خلال سفرنا هذا، حيث كان لنا يوميا برنامج للسياحة، حين نخرج من الفندق؛ والغالب يكون تنقلنا راجلين، بعد أن نستقلَّ حافلة إلى وسط المدينة؛ وفي يوم من الأيام، قمنا من نومنا متأخرين، فغادرتنا الحافلة التي برمجنا معها زيارة منطقة معينة؛ فبقي الجميع بعضهم يتأفف، والبعض الآخر يتحسر؛ فقلت لأحدهم: هذه ضريبة كسلكم، وعدم قيامكم في الوقت اللائق باكرا... ثم إنَّ برنامج البارحة قد انتهى البارحة، وبرنامج يوم غد هو ليوم غد، أمَّا برنامج اليوم فلا يمكن استدراكه ولا تأجيله... وإنما قد شطبتم عليه...».

ساعة بين حناياك

علق الدكتور على حوارنا قائلا:

- البرمجة هي سرُّ الزمن، هي سرُّ النجاح، هي سرُّ كل شيء...

- **قلت له:**

يوجد علم في الدراسات الزمنية يسمَّى «علم الساعة البيولوجية»[1] يقول إنَّ داخل الإنسان ساعة مبرمجة بيولوجيا ترنُّ للجوع، وللنوم، وللحيض عند المرأة، للاستيقاظ، للعمل؛ وعند الحيوانات كذلك، ترنُّ للهجرة، وللتكاثر... غير أنَّ المفهوم الذي ذكرتَه أستاذي، من كون داخل الإنسان منبِّهًا، برمجه الوالدان والمجتمع على وقع الدين والقيم، هذا المفهوم يتجاوز الدلالة البيولوجية، إلى معنًى أعمق وهي الدلالة الثقافية، فوق المادية. فهذا مفهوم إضافي مبتكر في مجال الساعة الداخلية.

(1) علم الساعة البيولوجية: من العلوم التي تجمع بين علم النفس، والطب، وعلوم الطبيعة... وغيرها؛ فهو عابر للعلوم؛ وتصدر عالميا أكثر من ألف مقالة محكمة سنويا حول اكتشافات هذا العلم. وانظر- محمد باباعمي: **علم البرمجة الزمنية**؛ ص58.

ثم أجاب الدكتور:

إنَّ الذين وضعوا هذا المنبه، هذه الساعة، بين حناياك، أناسٌ أميُّون، لا علمَ لهم، ولكنَّ التربية والصلاة اليومية... هي التي دفعتهم إلى ذلك فطريا. ولذلك تقرأ في ديوان قولي: قم مع الفجر خفيفًا. (في قصيدة: تسابيح رمضانية)[1].

نعَم، لما في هذا المجال من معنًى كبير، ومنتهى القول عند رسول الرحمة محمد ﷺ: «**بورك لأمَّتي في بُكورها**»؛ كل الخير والفلاح في هذا الحديث، وفي الامتثال بأمر رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أسفًا على من يضيِّع وقته سُدًى، ولا يشعر بقيمة الوقت الذي يتسرب من بين أنامله نحو الفناء، فتنقضي أيام العمر سريعا... مسكين هو... مسكينٌ...

(1) ديوان «**بعد الغسق يأتي الفلق**»، قصيدة «تسابيح رمضانية»، مقطع بعنوان: «قم مع الفجر»، ص122. ومطلعها:

في سكون الليل والليلُ بهيم يتعالى صوتُ رحمانٍ رحيم

وقت لحفظ القرآن... وذكرى استظهاره

الطالب: وماذا عن حفظك للقرآن الكريم في مدرسة الحياة[1]؟ هلاَّ بسطتَ القول أستاذي في ذلك؟

الدكتور: كان منهج حفظ القرآن في مدرسة الحياة أو ما يُعرف بقسم المصلَّى، يهيِّئ الوقت الكامل لاستظهار سور القرآن وحفظها بقدر لا يقل عن ثُمنين في اليوم الواحد... وكنَّا متفرِّغين لحفظ القرآن في الوقتين الصباحيِّ والمسائيِّ، بل كانت المدرسة تخصِّص لمن ختم القرآن ساعةً بعد العشاء بدار (تانجّارْتْ) جوار دار الشيخ عـدُّون... وهكذا كنَّا نقضِّي مع حفظ القرآن ومراجعته حوالي عشر ساعات في اليوم[2].

متى كان ذلك، وفي أي عمرٍ؟

الأستاذ: التحقت بالمدرسة الصيفية في أوت سنة

(1) انظر- التقرير «**خلاصة عن نظام تحفيظ القرآن الكريم، في مدرسة الحياة بالقرارة**» تأليف الأساتذة: صالح حدبون، مصطفى باجو، محمد باباعمي؛ إشراف الشيخ بلحاج شريفي؛ **مجلة الحياة**، العدد 2؛ رمضان 1419هـ - 1999م. ص89 وما بعدها.

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص77.

1952م؛ أي كان عمري يومها أربعة عشر عامًا؛ ثم أضاف: ولقد كان من العوائق التي لم تُساعدني على الوفاء بتوقيت الاستظهار انشغالي باللعب بالدراجة الهوائية التي أهدانيها ابن عمي سليمان[1].

■ وماذا عن الاستظهار، هل تذكر متى كان، وكيف تم، والأجواء التي رافقته؟

■ **الأستاذ**: كان ذلك في «الليلة المشهودة» وهي ليلة الثلاثاء 1954م؛ وهي ليلة لا تُنسى في حياتي؛ بل إني أعُدُّها مع ليلة زواجي في ماي 1959م أجمل أيام حياتي وعمري على الإطلاق... ولعلَّ الحدث العجيب الذي طبع تلك الليلة هو سقوط الثلج بالقرارة، وهو حدثٌ نادرٌ عجيبٌ... وبذلك أصبحت أؤرخ لهذه الليلة المشهودة من عمري بهذا الحدث النادر العجيب[2].

(1) نفسه؛ ص79.

(2) نفسه، ص81.

في ليكول - البرنامج الزمني والخرجات الترفيهية

الطالب: هذا عن المدرسة الحرة، أعني مدرسة الحياة؛ وماذا عن المدرسة الرسمية، هل لنا أن نعيش معك ذكرياتها؟.

الأستاذ: نعم، بالطبع؛ ما تزال تلك السنوات السبع التي قضيتها في (ليكول)[1] منقوشة بذكرياتها الحلوة والمرة في ذاكرتي الطِّفليَّة...إنَّ التوقيتَ الذي استحوذ عليه المكتب الفرنسيُّ (ليكول) أكثر بكثير من التوقيت في المدرسة الحرة؛ فقد كان الدخول على الساعة الثامنة صباحًا حتى الثانية عشر، ثم من الواحدة بعد الظهر إلى الرابعة؛ فهي سبعُ ساعات تقريبا تتخلَّلها راحةٌ بنصف ساعة في الحصة الصباحية.

ومما علِق في ذاكرتي الطفليَّة ولاسيَّما في السنوات

(1) ليكول: صيغة دارجة جزائرية، وكذا تستعمل في الميزابية للمدرسة، وهي اقتباس من الفرنسية؛ «l'école» وتسمى كذلك «المكتب الفرنسي»، و«المدرسة الرسمية» في مقابل «المدرسة الحرة» كان التمدرس بها شبه رسمي من الحكومة الاستعمارية، كان يعلّم فيه معلمون فرنسيون وأحيانا معلمات فرنسيات يأتون غالبا من فرنسا لقضاء واجب الجندية.

الخمس الأولى ما كنَّا نقوم به مع معلِّمينا من خَرجات ترفيهية (promenades) تكون غالبًا خارج أسوار القرارة إلى الصحراء الشاسعة... وما زلتُ حتى اليوم مولهًا بجمال الصحراء والواحة[1]، أجد فيهما المتنفس من معاناة الجسم والنفس معًا... وكثيرا ما كانت هذه الخرجات في شهر ماي آخر السنة الدراسية حين يشتدُّ الحرُّ... وهي لحظاتٌ زادت من ارتباطنا بمعلمينا حقًّا؛ لأننا كنا نجد فيها شيئا غير الصرامة داخل الأقسام الدراسية، وغير العصا التي كانت فارقا ملحوظا بين التعليم في المدرسة الحرة والتعليم في المكتب الفرنسي[2].

«كانت حياتي تسير على هذه الوتيرة ما بين المدرسة

(1) يقول الدكتور ناصر: «الغابة بالنسبة إليّ المكان المفضل الذي أقضي فيه أوقات عطلاتي المدرسية الأسبوعية والسنوية، فقد كانت الغابة رئتي التي أتنفس بها، وملاذي الآمن الذي أخلو فيه إلى كتاب أقرؤه، أو قصيدة أكتبها، أو مقال أحرّره، وأحيانا يكون ذلك بصحبة أحد أصدقائي الأوفياء، أو إخواني الأعزاء..» **ذكرياتي ومذكراتي**، ص . وفي ديوان **وحي الضمير**، ص136، قصيدة بعنوان: بين النخيل، وقد كانت من أجمل الأناشيد التي تنشدها الفرق الفنية في وادي ميزاب، يقول فيها:

فـي لُـجَّـةِ الـصّـمـتِ الـبَـديـعِ، عَـلـى الـمَـنَـابِـعِ والـظّـلالِ
بَـيْـنَ الـسَّـنَـابِـلِ والـكُـرُومِ، وَرِقَّـةِ الـمَـاءِ الـزُّلالِ
يَـحـيَـى أَدِيـبٌ شَـارِدٌ، لَا يَـشْـتَـهِـي غَـيْـرَ الـخَـيَـالِ
رُوحٌ تَـفَـتَّـحُ لـلـطَّـبِـيـعَـةِ، لـلـجَـمَـالِ لـلـطَّـلَاقَـةِ،

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص83-84.

و(ليكول)، وما بين الدار والغابة، وما بين المدرسة والكشَّافة لا أكاد أبرح القرارة؛ فكنت أتمنى حلول العطلة الصيفية حتى أسافر إلى مدينة بسكرة، أو التل حيث تجارة والدي»[1].

(1) ذكرياتي ومذكراتي؛ ص107.

في معهد الحياة: الفتوة والشباب

سألت أستاذي:

وماذا عن مرحلة معهد الحياة[1]؟ ما هو البرنامج اليومي؟ وما هي أبرز المحطات والنشاطات في هذه المرحلة الغضة الطرية من عمرك؟

أستاذي:

البرنامج اليومي في المعهد[2] يبدأ من الثامنة صباحا ويستمر إلى الحادية عشر قبل صلاة الظهر، ثم من الرابعة بعد صلاة العصر إلى ما قبل المغرب بقليلٍ؛ وما بين المغرب والعشاء للمطالعة في الصالة الكبرى، حيث تكون المحاسبة على صلاة الفجر جماعة، ومعاقبة من يستحق العقوبة، ثم نعود بعد العِشاء والعَشاء إلى المطالعة الليلية

(1) ينظر: **معهد الحياة، نشأته وتطوره**، تأليف: الشيخ سعيد بن بالحاج شريفي (الشيخ عدّون) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تقديم: د. محمد صالح ناصر، ط.1: 1409/1989، ط.2: 1430/2009، نشر جمعية الحياة وجمعية التراث، القرارة.

(2) في مرحلة معهد الحياة لا يدرس الطالب في (ليكول) وإنما يختار إمَّا أن يتفرغ في المعهد، وإمَّا يواصل في المتوسطة ثم الثانوية، ويدرس طرفي النهار في المدرسة القرآنية.

عدا العطل الأسبوعية، وهي ليلة الخميس والجمعة وليلة السبت؛ لأنَّ الدراسة في المعهد خمسة أيام في الأسبوع من السبت إلى الخميس[1].

(1) ذكرياتي ومذكراتي؛ ص136.

في القاهرة

الطالب: من القرارة انتقلتَ إلى القاهرة[1]، لتواصل دراستك، في مغامرة أوردتَ تفاصيلها في المذكرات، والسؤال هو: كيف كان برنامجك الزمني، ونشاطك، وراحتك... في القاهرة، وأنت الغريب البعيد عن الأهل والوطن؟

الأستاذ:

في ذلك الفراغ الهائل من الأهل والإخوان وجدتُ الأيام تمر ثقيلة ثقل الصيف بحرارته ووحشته، فكنت أقضي ذلك الفراغ في المطالعة، إذ ليس عندنا وسائل أخرى: لا راديو، ولا تلفاز للترفيه، سوى نزولنا لوسط القاهرة نتسلى في ليالي الجُمع بمشاهدة فيلم، أو عرض مسرحيٍّ، أو ندوةٍ ثقافية... وكنتُ أشعر حينها بأنَّه يجب عليَّ أن أتعلم اللغة الانجليزية، وأكمِل اللغة الفرنسية... فانكببتُ على مطالعة الكتب الفرنسية، وكنت مُغرما

(1) كان ذلك في ماي 1962.

بقصص الكاتب الفرنسي «ألفونس دوديه»[1].

ولعلَّ الهاجس الذي صاحبني هو أن أحسِّن مستواي في اللغة الفرنسية؛ حتى أجيد الكتابة والبحث بها، هذا الذي دفع بي إلى وضع خطَّة في برنامجي اليومي لهذه اللغة، إلى جانب مطالعتي بالعربية... والحقُّ أني لم أستمرَّ في هذا البرنامج سوى سنتين، انصرفت بعدها إلى تعلُّم اللغة الانجليزية[2].

(1) ألفونْس دوديه (Alphonse Daudet) (1840-1897) كاتب فرنسي، ارتبط بالمدرسة الطبيعية، وامتزجت في أعماله اللوحات الواقعية للحياة اليومية بالخيال. ألف العديد من الروايات (**الشيء الصغير**، 1868م؛ **تارتاران من تاراسكون**، 1872م؛ **سافو**، 1884م) بالإضافة إلى قصص طويلة وأخرى قصيرة (**رسائل من طاحونتي**، 1869م؛ **قصص الاثنين**، 1873م).

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص242-244.

جامعة القاهرة

الطالب: وبعد الصائفة التي وصلتُم فيها، وبداية الدراسة في الجامعة[1]، كيف كان البرنامج الزمني للجامعة؟

الأستاذ: انتظمت حياتي الدراسية بعد نجاحي في الفصل الأول بتفوُّق والحمد لله... ومجموع ساعات الدراسة ثلاثون ساعةً أسبوعيًّا، سوى يوم الجمعة الذي كان يوم عطلةٍ؛ والدراسة تنقسم إلى فترة صباحية تبدأ من الساعة الثامنة حتى الواحدة، ثم الفترة المسائية التي تبدأ من الثالثة حتى السابعة... ومن حسن حظي أنَّ يومي الاثنين والثلاثاء صباحا لا دراسة بهما بالنسبة لبرنامجي، فكنت أخصص الصبيحتين للذهاب إلى دار الكتب المصرية[2].

(1) درس في جامعة القاهرة، كلية الآداب قسم اللغة والأدب العربي.

(2) دار الكتب المصرية، في عام 1870م وبناءً على اقتراح علي باشا مبارك ناظر ديوان المعارف ـ وقتئذ ـ أصدر الخديوي إسماعيل أمرا بتأسيس دار للكتب بالقاهرة «الكتبخانة الخديوية المصرية» لتقوم بجمع المخطوطات والكتب النفيسة التي كان قد أوقفها السلاطين والأمراء والعلماء على المساجد والأضرحة والمدارس ليكون ذلك نواة لمكتبة عامة على نمط دور الكتب الوطنية في أوربا. وفي عام 1904م انتقلت المكتبة إلى مبنى أنشئ لها =

والواقع أني كثيرا ما كنت أتخلَّف عن حضور بعض المحاضرات التي لا يعجبني أسلوب المحاضرين في تقديمها، كأولئك الذين يُملون محاضراتهم من الأوراق، إذ أفضِّل الذهاب إلى المكتبة حيث أطالع ما يوسِّع آفاق ثقافتي، وأنجز بحوثي[1].

= في ميدان (باب الخلق). وفي عام 1971م انتقلت المكتبة إلى المبنى الحالي. وفي عام 1966م تم ضم دار الوثائق المصرية إلى دار الكتب المصرية، وفي عام 1993م صدر القرار الجمهوري بإنشاء الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، وأصبح لها هيكل تنظيمي مستقل، وقسمت إلى عدة إدارات مركزية رئيسة هي: الإدارة المركزية لدار الكتب، الإدارة المركزية لدار الوثائق، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، الإدارة المركزية للشؤون المالية والإدارية، دار الكتب بباب الخلق، الإدارات التابعة لرئيس مجلس الإدارة.

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص259-260.

مشايخي الذين ربوني على السحَر

الطالب: وفي القاهرة، التقيتَ بالشيخ محمد علي دبوز، وأنتَ المعجب به، ولقد كتبت عنه في كتابك «مشايخي كما عرفتهم»[1]، واعتبرتَه من أبرز من شكَّل خطَّ حياتك، فما علاقتك به في ديار الغربة؟ وماذا عن علاقته هو بالزمن؟ ولقد ذكرتَ في مذكراتك أنَّ الشيخ محمد علي دبوز أثَّر فيك كثيرا بخاصة في مجال الوقت واستغلاله، وأذكر أنني كتبتُ بحثا بعنوان: «الزمن عند الشيخ محمد علي دبوز من خلال مذكراته»[2]، ولقد استفدتُ كثيرا، بخاصَّة من مقطع من مذكراته المسوَّدة، ومن مراسلاته المخطوطة؛ ورأيت كيف يصف الزمن، كيف يتفاعل معه، كيف يصور هذا العصر مثلا بـ«العجوز الشمطاء».

مَن مِن المشايخ كان له الأثر الأكبر فيكَ، في علاقتك بالنظام وبالوقت؟ أم أنهم جميعا كانوا على مستوى رفيع

(1) **مشايخي كما عرفتهم**، نشر دار ناصر - الجزائر، ط.2: 1434/2013هـ، ص159 وما بعدها.

(2) محمد باباعمي: **الزمن في أدبيات محمد علي دبوز، المراسلة نموذجا**؛ مجلة الحياة، العدد 2؛ رمضان 1419هـ - 1999م؛ ص194 وما بعدها.

من الاعتناء بالوقت؟

الدكتور ناصر: لا، ليس كلُّ المشايخ والأساتذة كذلك... وهذا في رأيي وحسب تقديري طبعًا، ويمكن أن يوجد لغيري نظرية تخالف نظريتي... لا أعرف... فالذين ربَّوني على هذا النظام، وغرسوا في هذه الحساسية، كما ذكرتُ لك من قبل: البيئة، والأم، والأب، والمدرسة... فأبي مثلا، كان حريصا جدا، لا مجال عنده لتضييع الوقت؛ وكذلك أساتذتي ومشايخي مِن المربين الكبار، الذين رأيتُ أنَّ الزمن له قيمة في أنفسهم ولعلَّ أولهم الشيخ محمد علي دبوز[1]... كلُّ ثانية محسوبة عنده، ولا يداهن في وقته أحدا...

الطالب: هل لك أن تذكر نموذجا لذلك؟

الأستاذ: نعم، أتذكَّر عندما كنَّا في القاهرة، وكان هو يؤلف ما بين أعوام 1961 ـ 62 ـ 63 كتابه «تاريخ المغرب الكبير»[2]، كنا نحن الطلبة نسكن وحدنا بعيدًا،

(1) محمد بن علي دبوز: كاتب ومؤرخ (1919م - 1337هـ/1981م - 1402هـ)، ينظر **معجم أعلام الإباضية**، نشر جمعية التراث، 1999، الترجمة رقم: 840، ص812.

(2) نشر الشيخ محمد علي دبوز عدة مقالات في جريدة البصائر، ما بين 1948-1955، وقد نشر الدكتور محمد ناصر نماذج من هذه المقالات في كتابه: «**الشيخ محمد علي دبوز والمنهج الإسلامي لكتابة التاريخ**»، ومن مؤلفات =

حوالي ساعتين بوسائل النقل من سُكناه ومقره الذي هو وسط المدينة، قريبا من المطابع، كان يسكن هو في مرقد (pension) يطبخ لنفسه، يغسل ملابسه بيده، وهو في الستين من عمره، أحيانا أسأله: كيف يا شيخ تتحمل كل هذا العناء؟

يجيبنا: من أجل التأليف أضحي بكل شيء... حتى بحياتي الخاصة...

وهذا المعنى ذكره في كثير من رسائله، وربما تجد شيئا منه في المقدمة التي كتبتها لبعض مؤلفاته.

المهم، الشيخ محمد علي دبوز كان يأتينا مساء الخميس، ومعه جُبنة طرية تُشبه جبنة بريان (تكماريت انبريان)، من «ميدان التوفيقية»، ومعه شايُ بالياسمين، يشتريه من الليبيين المقيمين في مصر؛ فكان له ذوقٌ رفيعٌ جدًّا؛ يعطي لكلِّ شيء معناه... ثم يقضِّي مَعنا عشية الخميس، يخفِّف عن نفسه عناء الأسبوع، لكي يتجدَّد.. تماما مثل تلك الشمس التي تغرب لكي تتجدد وتولد من جديد... ثم يغادرُنا وقت العشاء، ويقول لنا: «يا اجْمَاعَة، الملتقى يوم الخميس القادم» ويقصد أن ينبهنا بقوله: «لا

= الشيخ دبوز: «**تاريخ المغرب الكبير**» في ثلاثة أجزاء، «**نهضة الجزائر الحديثة**» في ثلاثة أجزاء، «**أعلام الإصلاح في الجزائر**» في خمسة أجزاء.

تأتوني، ولا تزوروني قبل ذلك».

أحيانا يأتي مثلا ضيفٌ من الجزائر لنأخذه لزيارة الشيخ دبوز، أو نستلم رسالةً نبلغها له، ثم نقصده من مسكننا إلى حيث يسكن هو... أحيانا أنا، وأحيانا صديقي الرسَّام إبراهيم مردوخ[1]، لأننا نحن تلامذته.. وكنَّا عندما نصل إليه، يقول لنا، ولا أنسى هذه الكلمة: «يا جْمَاعة، عَندْكُم ثلاثْ دْقَايق»...

وحقا، لا نبقى عنده إلاَّ ثلاث دقائق، لا أكثر...

- **قلت له**: بعد ساعتين من الطريق؟
- **قال الأستاذ**: نعم، بعد أن ضحك متأثر ذاكرا... نعم، ساعتان بأوتوبيس القاهرة...

ثم أردف قائلا: نحن، بما أننا نعرفه، ونكبُره على ذلك، فندعو الله أن يعينه... ثم نغادر..

الشيخ دبوز نسيج وحده... يحاسب نفسه على كل

(1) الفنان إبراهيم أحمد مردوخ: (1938–): خريج معهد الحياة سنة 1959، تحصل على البكالوريوس تصوير في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة سنة 1967م، وعلى دبلوم في فن الإعلان من مدرسة ليوناردو دافينشي بالقاهرة في نفس السنة. عمل أستاذا للتربية الفنية ومفتشا عامّا للمادة. عُيّن مديرا للثقافة لولاية ورقلة ما بين (1995-1998). تحصل على شهادة تقدير من رئاسة الجمهورية بمناسبة الاحتفال بالذكرى 25 للاستقلال (1987).

دقيقة من عمره، ماذا عمل؟ ماذا حقق؟ فيما فرط؟ فصورة كُره المقاهي والجلوس فيها مثلا، أخذناها منه، وللأسف بعض طلبتنا في الخارج، كانوا أحلاس المقاهي... وهذا نراه صيفا بخاصة، حين يزورونا، ويقضون صيفهم في القاهرة... ومنهم من أعرف إلى اليوم، مساكين لم يحققوا شيئا في حياتهم من علم أو جاه... تحصلوا على الشهادة وكفى...

ثم قال الدكتور: والله إني الآن لا أعرف لعبة (الكارتا)، ولا (الدومين)، كيف تُلعب، وما هي قواعدها؛ لأني لم ألعبهما ولو مرة في عمري... فأنا في هذه «حمارٌ» (دَاغْيُول دِيس).

فالشيخ دبوز إذن هو قمة المثال في العلاقة بالزمن، لا نظير له...

حتى في القرارة، واعتكافه في مسجد المقبرة، لوحده، لا أحد معه... (ما يْشُوف جَن ما يْسَمِّي) ثم ذكر الدكتور بيتا:

لغى الطير فاستأنستُ بالطير إذ لغى
وصـــوَّت إنســـان فـكـدتُ أطـيـرُ

قلت له: لرهين المحبسين بيت مشابه يقول فيه:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصـــــوّت إنـــســـان فـــكـــدتُ أطـيـر

قال: نعم، لأنَّ الطير في السماء يصدر صوتا، يلغو... وأنا أحفظ البيت بهذه الصيغة، والمؤدَّى واحد..

سألته: هل هذه الصرامة من الشيخ دبوز مقبولة عند مَن حوله؟ هل يفهمونه؟

قال: أبدًا... أبدًا..

قلت: كيف يرونه؟

قال: يرون أنه شاذٌّ في المجتمع، وكنت أعرف أحد وُجهاء القوم، أفضى إلى ربه رحمه الله، كان يلقِّب محمد علي بـ: «الشاذ»... يقولها بالمزابية (أزغُوغْ) أي الجنيُّ.... ذلك لأنَّ الشيخ دبوز يرفُض حضور الأعراس، ويرفُض دعوات الولائم الدائمة... فهو لا يقصد أبوابها أبدا، إلاَّ في حالة واحدة، حين يتزوج طالب من معهد الحياة، تراه يحضر في الليلة الثانية من العرس، ويحضر ليلقي كلمته، وليحرض المجتمع على الخير؛ لأنه رجلٌ رساليٌّ... يؤدِّي واجبه، ثم يغادر...

سبحان الله، الشيخ محمد علي دبوز ظاهرة... وللأسف الشديد، لم يُنصَف... إلى حد الآن...

الشيخ عدون

الطالب: ومنْ مِن المشايخ كذلك له بصمة على علاقتك بالزمن؟

الأستاذ: يأتي الشيخ عدون[1] رحمه في المرتبة الثانية من حيث أثره فيَ... هو كذلك منضبط مع الوقت، منضبط من حيث البرمجة اليومية؛ ولقد رأيتُه حين كان مدرِّسا بالمعهد، بعد سهرٍ في بيته أو في أيِّ مكان آخر ـ بخاصة مع لقاءات إدارة جمعية الحياة والمشاريع التابعة لها ـ إلى غاية منتصف الليل، أو الواحدة... وفي السَحر

(1) الشيخ عدون سعيد بن بالحاج شريفي، (1902م - 2004م/1319هـ - 1425هـ) رفيق درب الشيخ بيوض، والشيخ أبي اليقظان في الحركة الإصلاحية. ساهم في إصلاح التعليم في القرارة، وعين مديرا لمعهد الشباب (معهد الحياة الذي شارك في تأسيسه إلى يوم وفاته، كما كان مدرسا فيه للمواد الشرعية والعربية إلى سنة 1988. أشرف لمدة سنة (1936-1937) على إدارة جريدة **الأمة** خلفا للشيخ أبي اليقظان. تولى رئاسة الكثير من الهيئات من بينها: مجلس عمي سعيد، ومجلس باعبد الرحمن الكرثي، وحلقة العزابة بالقرارة، وجمعية الحياة بفروعها، وجمعية القدماء، وجمعية التراث،.. إلى غير ذلك من المهام. ينظر: محمد ناصر بوحجام: **الشيخ عدون بأقلام أصدقائه وأبنائه**؛ جمع وتقديم وتعليق، نشر جمعية التراث، القرارة- غرداية؛ ط.1: 1430هـ - 2009م.

تجده يُسابق إلى المسجد، ويلحق بصلاة الجماعة... وهذا يعني أنَّ انضباطه مع الوقت، ومحاسبته لنفسه، أمرٌ عجيب... وقد نشأ أبناؤه على هذا إلى اليوم: الشيخ بالحاج شريفي[1]، شريفي محمد الخطاط[2]، الطبيب

(1) الشيخ بلحاج شريفي: (1927–)، الابن الأكبر للشيخ عدون شريفي سعيد، أرسله الشيخ بيوض على نفقته الخاصة ليكمل دراسته في الزيتونة بتونس، وكان طالبا حرا يحضر مجالس العلم والعلماء دون انتساب إداري مدة سنتين، وكان من أبرز شيوخه: الفاضل بن عاشور ابن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأحمد مختار الوزير، وابن زنيقة. حصل على الدبلوم المكافئ للبكالوريا من المعهد الإسلامي العالي بقصر حسان بالقصبة الذي كان يديره المستشرق هنري بيريس. قضى 14 سنة أستاذا للتعليم الثانوي. حصل على شهادة الدكتوراه (درجة ثالثة) في سنة 1970، وكلّف بتعريب قسم علم النفس. درّس في معهد العلوم الإسلامية ما بين 1982 و1996. حقق تفسير القرآن للشيخ «هود بن المحكم الهواري».

(2) الدكتور محمد شريفي: (1935–)، الخطاط ابن الشيخ عدون شريفي سعيد، وشقيق بالحاج شريفي. الصديق العزيز للدكتور محمد ناصر، جمعتهما الكثير من المناسبات بداية من القرارة مسقط رأسيهما في معهد الحياة والكشافة، مرورا بالقاهرة أين التقيا سنة واحدة في مرحلة التدرج، ثم التقيا في التدريس في جامعة الجزائر. كما جمعتهما الرحلات الفردية أو العائلية. حصل على شهادة خطاط من مدرسة تحسين الخطوط العربية في القاهرة، وبكالوريوس من كلية الفنون الجميلة في القاهرة، وشهادة الدكتوراه (الدور الثالث) في تاريخ الفن الإسلامي في الجزائر، وشهادة دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي في الجزائر. حاز شرف كتابة المصحف الشريف كاملا مرتين: 1978 و1983، والأجزاء الأخرى: **جزء عم، جزء قد سمع، وجزء سبّح**.

يوسف، بكير...

الفرق بينه وبين الشيخ محمد علي دبوز هو أنَّ الشيخ عدون اجتماعيٌّ، لديه لقاءات مع أصدقائه، يحضر الولائم والخرجات... ومِن الغريب أنه يسمِّي الشيخ عدون نفسه في مراسلاته «التامبر» (طابع البريد) لأنَّه يلصق به بالجماعة حسب تصوره، فيكتب في رسائله: فلان، وفلان، وفلان... والتامبر...

مِن الطَّرَف الآخر، لديَّ أمثلة لمشايخ لا يرون في الوقت غضاضة... فلا يحرصون عليه الحرص الشديد، ويبذرونه في جلسات ولقاءات لا حدَّ لها... ولا يحبذون طول الجدِّ والعمل المتواصل... ولا يحاسبون أنفسهم على الدقيقة والساعة واليوم... هم منفتحون على الناس، يختلطون بهم بلا هوادة... وبعض من أذكر مبدع في الهروب من المسؤولية والجدية[1]...

(1) ثم أورد الدكتور قصَّة أستاذ قديم كان يهرب من المعهد، أوان التدريس، قصد الجلوس في دكانات السوق... مع يهودي اسمه «قورو»، يأخذ منه الأخبار والمستجدات... وذلك وقت الثورة، قبل أن يغادر هذا اليهوديُّ إلى فرنسا...

زمن العطاء والإثمار

- الثانية ليلا
- فكرة التفرغ للتأليف، والاستقالة عن المهام الاجتماعية
- في مدرسة الحياة مدرِّسا
- أوقات المطالعة
- كرونولوجيا المطالعة: نموذج من مطالعاتي في هذه المرحلة

الثانية ليلا

الطالب: أيَّ وقت تبدأ فيه العمل أستاذي؟ وما هي أفضل الأوقات التي تخصِّصها للتأليف؟

الأستاذ: من كرامات المرض[1] أنَّه غيَّر نظرتي للزمن، وضبط تصورات جديدة فيَ حياله، وعلمني أمورا ومفاهيم عن الزمن ما كنتُ أعرفها من قبل؛ فأنا دومًا أقوم على الساعة الثانية ليلا، ولا يواتيني النومُ حتى لو حاولته بكلِّ الوسائل؛ وبذلك أقطع تلك الحالة النفسية من التقلُّب على الفراش بأن أقوم وأقصد مكتبي، وأوقد المصباح، وحدي في سكون الليل، ثم أعمل ساعةً أو ساعتين، والغالب إلى أذان الفجر؛ والحقُّ أنَّ العمل في هذا الوقت من تربية الشيخ محمد علي دبوز لنا؛ وهو الذي كان يقول: «عليكم بالفَرس الأدهَم» أي جوفَ الليل؛ ولذا فهذا المعنى مستقرٌّ في «برنامجي القلبي والعقلي» (logiciel) ـ قالها بالفرنسية ـ.

(1) مرض الدكتور بالعجز الكلوي، فاضطرَّ لتصفية الدم ثلاث مرات في الأسبوع؛ ولقد أورد تفاصيل مرضه في المذكرات؛ ص749.

أستاذي، يقال: «ما أطول الليل على من لم ينم»[1]، وفي قصيدة مغناة يقول الشاعر:

يا ليل الصبُّ متى غده أقيام الساعة موعده[2]

استغلال هذا الوقت، جوف الليل، السحَر... إلى اليوم، والدكتور فوق الثمانين، ولديه حصص تصفية الدم ثلاث مرات في الأسبوع، وفي ذات الوقت، أغلبُ الناس نيامٌ في هذا الوقت...

تلك الأوقات، كيف نفسرها؟ كيف نعرفها؟

كيف نجعل الناس تدرك أهميتها، فيفهموا أنه بدون ذلك الوقت لا نحلم بعلم، ولا ببركة؟

الدكتور متأثرا: أجيبك بجواب أحد العلماء لأحد الملوك، حين قال له: «والله لو تشعرون بما نشعر لحسدتمونا على اللذة التي نجدها» (أو لحاربتمونا عليها)[3].

---

(1) هو عجز من بيت تمامه:

لكلِّ ما يؤذي وإن قلَّ ألم
ما أطول الليل على من لم ينم

من أرجوزة الأمثال، لأبي العتاهية.

(2) البيت مطلع قصيدة للشاعر العباسي الحصري القيرواني.

(3) في «**تاريخ دمشق لابن عساكر**» حديث مقطوع، روي عن إبراهيم بن أدهم، =

في ذلك السكون، أرى نفسي كمثل راهبٍ في ديره، إحساسٌ لا يوصَف أبدًا، فيه لذَّة عجيبةٌ، آملُ أن لا ينقضي ذلك الوقت أبدًا؛ فمجرَّد التفكير في النوم مثلا لا يواتيني، ولا يخطر حتى في بالي... ذلك أنَّ النوم طار، ذهب...

قلت له: حتى عبارة «النوم طار» صورة مجازية معبرة... ثم ضحك الأستاذ...

= نصه: «عن إبراهيم بن بشار الصوفي قال: خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم، وأبو يوسف الغاسولي، وأبو عبد الله السخاوي نريد الإسكندرية، فمررنا بنهر يقال له: نهر الأردن ، فقعدنا نستريح، وكان مع أبي يوسف كسيرات يابسات فألقاهن بين أيدينا ، فأكلنا وحمدنا الله ، فقمت أسعى أتناول ماء لإبراهيم ، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء ركبتيه، فقال بكفيه في الماء فملأهما، ثم قال: «بسم الله، وشرب، فقال: الحمد لله، ثم إنه خرج من النهر، فمدَّ رجليه، قال: يا أبا يوسف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلة التعب». غير أننا لا نقرُّ هذا المعنى، لما يدعو إليه الإسلام من الكبد، ومن الضرب في الأرض ابتغاء مرضاة الله، وفي هذا راحة لا يعلمها كثير من الناس».

فكرة التفرغ للتأليف، والاستقالة عن المهام الاجتماعية

الطالب: أنت إذن متفرغ كلية للتأليف والكتابة؟

الأستاذ: هذه الفكرة سببت لي الكثير من المتاعب، ودفعتُ ضريبةً لها «سمعتي وعِرضي» الذي قيل فيه الكثيرُ ممن يعارضني الفكرة، ولم يفهمني. وبخاصَّة يوم قرَّرتُ مغادرةَ معهد الحياة بالقرارة، بعد خمسٍ من السنين تدريسًا به؛ والالتحاقَ بالجامعة في العاصمة لمواصلة الدراسة؛ فوقف الكثيرون ضدِّي، وقالوا عني في أوساطهم الضيقة: «إني أسخطتُ مشايخي وخالفت ما أمروني به».

وهذا غير صحيح؛ فقد استشرتهم، وقبلوا: بخاصة الشيخ عدُّون، وكذا الشيخ بيوض[1]، الذي جعلتُه وسيطا بيني وبين الشيخ عدُّون؛ ذلك أني كنتُ أخشى معارضة الشيخ عدون أكثر مِن غيره؛ كنتُ أخاف أن يؤثر إخلاص الشيخ في حياتي، إذا أغضبته أو تسببت في قلق أو حنق

(1) الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، مصلح وزعيم (1899م - 1981م/1313هـ - 1401هـ)، ينظر الترجمة الكاملة: **معجم أعلام الإباضية**، نشر جمعية التراث 1999، الترجمة رقم 033، ص36.

لديه. (أخاف أن تخرج نيته فيّ)[1].

ولقد وجدت معارضة كبيرة، بخاصة من بعض كبار عشيرتي (البلات)[2]، حتى إنَّ البعض أصدر عليَّ حكم «براءة العشيرة». لولا أنَّ والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف إلى جانبي، وشجَّعني على المضي قدما في اختياري؛ فكان لي نقطة قوَّة، ومددا روحيا؛ والوالدة كذلك كانت، فوجدت بفضلهما الحماية الكافية، والشجاعة اللازمة.

وبعد استقراري في العاصمة وتفرغي للبحث دون ارتباط بأيِّ مسؤولية رسمية أو وظيفية، فرَّغت كامل أوقاتي لبحوثي التي لم أنجزها، أو أنجزتُ بعضها وهي كثيرة، قصد إتمامها ونشرها؛ وكنت مع ذلك أجد بعض الضيق من بقائي طوال الوقت حبيس أربعة جدران في مكتبي لا أبرحه[3].

(1) عبارة تقال بالدارجة الجزائرية، وحتى بالمزابية؛ أي أن تلحقني لأني خنته أو ظلمته.

(2) وهي عشيرة الدكتور ناصر؛ وهم من صف «الغرابة»، في مقابل صف «الشراقة»، في التقسيم القديم للمدن في وادي ميزاب.

(3) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص760.

في مدرسة الحياة مدرِّسا

الطالب:

هل لك أن تعود بنا إلى مرحلة التدريس بمدرسة الحياة[1]، وهي مرحلة إعداد بحث الماجستير؟

الأستاذ:

كنت أبدأ العمل مثل زملائي الأساتذة بعد صلاة الفجر مباشرة وبالتحديد على الساعة السادسة صباحا حتى السابعة والنصف... وكنَّا بعد الحصة الصباحية الأولى نعود بعد فطورنا في منازلنا على الساعة الثامنة إلى حصة ثانية تمتد من الثامنة حتى الحادية عشرة، وهذه المرة لتدريس البنات...

(1) التحق الدكتور محمد ناصر بمعهد الحياة في أكتوبر 1966، ويقول في «**ذكرياتي ومذكراتي**»، ص305، مستذكرا ذلك اليوم «وجدتني في جلسة خاصة مع أستاذي الشيخ عدون الذي قدمني إلى الأساتذة الباقين مرحبا بي ضمن أساتذة معهد الحياة، وأغلبهم أساتذة لي درّسوني وربّوني وعلّموني: المدير الشيخ عدون، الشيخ محمد علي دبوز، الشيخ ناصر المرموري، بكير بيوض، العايب محمد، باشعادل بكير، باجو صالح، الشيخ بلحاج محمد بن بابه»، وأسندت له المواد: الأدب، وتاريخ الأدب، والفلسفة، ومنهج البحث.

وبعد الغداء والقيلولة التي لا أفرِّط فيها أبدا شتاء وصيفا إلا لظرف قهري، وبعد صلاة العصر كذلك، أعود إلى مدرسة الحياة وبالتحديد إلى تلاميذي الذكور... لمزاولة تعليمي من الرابعة حتى السابعة، أو هي ثلاث ساعات تختلف تقديما وتأخيرا حسب فصول السنة، لأنَّ التوقيت يحدد بمواقيت الصلاة، وما كان يكون قبل صلاة العصر فيما أذكر كما لا يتجاوز صلاة العشاء إلا قليلا، أما المغرب فيصلى في رحاب المدرسة.

وقد كونت وزميلاي في المدرسة قاسم بكوش[1]، ومحمد بيوض[2] رفقةً بالدراجات النارية، نخرج ثلاثتنا

(1) الشيخ قاسم بن موسى بكوش (1938-2010): عضو في مجلس عمي سعيد ومجلس باعبد الرحمن الكرثي، وعضو في جمعية الحياة المشرفة على التعليم الحر في القرارة، وعضو في جمعية قدماء التلاميذ المشرفة على الشؤون الاجتماعية والثقافية في القرارة. وشيخ عشيرة البلات ورئيسها، إحدى أكبر عشائر مدينة القرارة منذ سنة 1982 إلى غاية 2006. عين في سنة 1996 مديرا لمدرسة الحياة إلى غاية 2006 حين أقعده المرض وأصيب بالشلل النصفي. كان حظيا عند الشيخ أبي اليقظان زوج أمه، رعاه في صغره واستوزره في كبره. انظر- «**رجال في ذاكرة الأمة: الأستاذ قاسم بن موسى بن عمر بكوش، مدير مدرسة الحياة**» إعداد الأستاذ: عيسى بن محمد الشيخ بالحاج؛ **مجلة الحياة**، العدد 10؛ رمضان 1431هـ - 2010م. نشر جمعية التراث- القرارة، ص246-252.

(2) الشيخ محمد بيوض (1930-2017): نجل الشيخ إبراهيم بيوض، عضو حلقة العزابة بالقرارة، أسندت إليه مسؤولية تعليم البنت في مرحلتي المتوسط =

إلى الصحراء الفسيحة في عشايا الخميس والجمعة غالبا[1].

= والثانوي في مدرسة الحياة بالقرارة في 1985، ثم أصبح مديرا لها في 1995. له مؤلفات مدرسية منها حلقتان في التاريخ: «الدول المتعاقبة على الجزائر». لزم المطالعة والمكوث في بيته بعدما أصيب بمرض في عينيه منذ 2006.

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص169، 172، 176، 188.

أوقات المطالعة

سألت: ما هي أوقات المطالعة التي تحبذها، إضافة إلى السحَر والبكور الذي خصصته للتأليف، وقد تحدثنا عن ذلك؟

الدكتور: المطالعة عندي لا أعيِّن لها توقيتًا خاصًّا؛ لأني أقرأ في أيِّ وقت، وفي أيِّ مكان.. حتى حين أكون مُتعبا، فإني بالكتاب أخفِّف من وطأة الحياة عليَّ... والذي يشغُلني أكثر هو وقت التأليف والكتابة، وأشترط فيه الهدوء، وراحة البال، وتفرُّغ الذهن للموضوع، وخلوَّ المكان... بخاصَّة ما كان فيه عودة للوثائق، والمصادر...

مثلا، أنا الآن قد انتهيت من بحث «الحاج عمر العنق المصلح المغمور»[1]، وسأنشره قريبا إن شاء الله تعالى،

(1) الحاج عمر هو أخ للحاج بكير العنق المعروف بأسد القرارة، ومن أدوار الحاج عمر إنشاء مدرسة تبسة عام 1913، وقد ذكرها مالك بن نبي في مذكراته، وهي أول مدرسة حرة في الجزائر، وكان من مؤسسي معهد الحياة؛ ولديَّ وثيقة تثبت أنَّ الميزابيين بمساندة عباس بن حمانة هم الذين تبرعوا بالمدرسة وشيّدوها، ومن هؤلاء ذكرت الوثيقة المرموري الحاج بكير، وهو الذي أهدى (فيلته) لتكون مدرسةً، ثم أغلقتها فرنسا بعد مدَّة، وكان الحاج عمر العنق من المؤسسين، وهو أمين المال. =

وأوافيك بنسخة منه...

= والحاج عمر، أرسل إليه الشيخ أبو اليقظان طالبا إياه إلى تونس، للتفكير في تأسيس البعثات الإباضية الميزابية، وكان الاثنان ـ أبو اليقظان والعنق ـ يدرسان في الزيتونة والخلدونية، ثم استجاب الحاج عمر، ثم اشتُريت دار (تربة الباي)، ثم تحول اسمها إلى دار (ابن خلدون)...، وأثناء تعلمهما توفي الشيخ اطفيش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم جاء الشيخ سليمان الباروني إلى الحاج عمر العنق وطلب منه مرافقته إلى ميزاب لتقديم التعزية، فعارض أبو اليقظان الفكرة، بحجة أنَّ العنق لن يعود، غير أن العنق وافق ورافق الباروني، ثم لم يعد... بل عاد إلى تبسة ومارس التجارة، وقد افتقدنا فيه رجلا عظيما، لا يعرف الناس قدره.

كرونولوجيا المطالعة:

نموذج من مطالعاتي في هذه المرحلة

نقلا عن مذكراتي سجلتُ هذه النقاط حسب الأيام:

• يوم 15ـ01ـ1963 أتممت مطالعة كتاب أدولف هتلر «**ظهور وانهيار**» لمؤلفه وليام شرارة.

• يوم 03ـ02ـ1963 أتممت مطالعة الكتاب القيم «**بين الدين والعلم**» لعبد الرزاق نوفل.

• يوم 02ـ01ـ1964 أتممت للمرة الثانية كتاب «**الموازنة بين الشعراء**» للدكتور زكي مبارك.

مضيعات الوقت

- من مضيعات الوقت
- الهروب بحثا عن التركيز
- عقدة الجلوس في المقاهي
- الانتظار

مِن مضيعات الوقت:

(الاجتماعات، كرة القدم، الهاتف، التلفزيون، الجرائد)

الطالب: علم «مضيعات الوقت»[1] هو علم له أصوله وأسسه ومصادره، والفرق شاسع بين «مضيعات الوقت» في الماضي، و«مضيعات الوقت» بعد الثورة المعلوماتية... والدكتور ناصر كيف يتعامل مع «مضيعات الوقت»؟ من مثل اجتماع فارغ في محتواه؟ ملتقى من الملتقيات لا فائدة مما جاء فيه؟ ثم جلسة كان يتمنى لو أثيرت فيها قضية من القضايا المصيرية، ثم ذهبت هباء في الفارغات، ثم غادرها متحسرا؟

الدكتور: علمتني التجربة أنَّ اجتماعاتنا أكثرُها فراغ في فراغ... ولذلك، أنا من البداية أعتذر ولا أحضر

(1) أبرز كتاب في علم مضيعات الوقت من تأليف «إليك ماكينزي» بعنوان: **مصيدة الوقت**؛ نشر بعدة لغات. وباللغة العربية نشر مكتبة جرير؛ 2002. ومما يقوله المؤلف: «لا نستطيع التحكم في كمّ الوقت الذي لدينا، إنما نستطيع فقط التحكم في كيفية استخدامنا له؛ ونحن بمجرد إضاعتنا للوقت، فإنه يكون بذلك قد أفلت منَّا ومضى عنا، وهو مالا يمكن استعادته أو تعويضه».

الجلسات إلاَّ نادرا، فأنا كثيرا ما أُدعَى ولكن لا أستجيب، وأتعلل بكلِّ العلل الممكنة؛ وأنا كنتُ أتلقى العشرات من الهواتف يوميًّا، لو استجبت لها كلَّها لانتهى اليومُ معها، والاجتماعات لا تنتهي، ولو استجبتُ لما اشتغلت بالعلم يومًا، والغريب أنه حتى مع المثقفين من النخبة قد يكون الاجتماع واللقاء بلا فائدة ... بل «جعجعة بلا طحين»... والغالبُ لا أفهَم في موقفي هذا، وأُتَّهَم بالهروب والغياب..

ومن «مضيعات الوقت» اليوم كرةُ القدم[1]، وأنا دائما أنبه أبنائي وأحفادي لهذا، ولكن منهم من فتنته كباقي الشباب... ثم أسألهم أن يقوِّموا أنفسهم: ماذا استفدتُ من مشاهدة هذه أو تلك؟ لا شيء... إذا ألا تحاسب نفسك؟ فلنعد إلى القواعد الشرعية فهي كافية ضافية...

- **سألته عن الهاتف**: هل تجيب دائما؟

- **قال**: لا، أحيانًا فقط؛ بكلِّ صراحة حين أكون مركِّزا مع التأليف والتفكير مثلاً، أتبادل المواقع مع التلفون، فإن يكن الهاتف هنا في مكتبي أكون أنا هنالك في الصالون، وإن كان في الصالون كنت في مكتبي...

- **ثم سأله سبطه جابر**: وماذا عن التلفزيون؟

(1) ينظر مقال: «**عندما تتحول كرة القدم إلى غاية**»، محمد باباعمي: **حدد غايتك**، دار وحي القلم، دمشق - سوريا، ط.1: 1434هـ/2014، ص56.

أجاب: أشاهد فقط «قناة الجزيرة»، وبعض الأشرطة لا غير... لأكون مطَّلعا على العالم وما يحدث فيه ولا أكثر... ثم أكتفي بذلك...

وبعض من أعرف، مفتون بقراءة الجرائد، أمَّا أنا فأرى أنَّ ذلك مضيعة للوقت ولا ريب... وأسأله: وفي النهاية ما الفائدة التي تخرج بها من جراء صداع الجريدة وكلامها الفارغ؟

الهروب، بحثا عن التركيز

ثم سألته: أنت، أستاذَنا، الدكتور ناصر، لديك مهمة ووظيفة في الحياة، تريد أن تخلو بنفسك، أن تؤلف... والمجتمع القريب يستدعيك، يدعوك للأعراس، لكؤوس الشاي، للاجتماعات... كيف تتصرف حيال هذا؟

الدكتور ناصر: تجربتي معروفة: الهروب عام 71 إلى جامعة الجزائر... والهروب بعد فتنة مارس 2014 من القرارة وقد أقمت بها سبعة أشهر... والهروب والعودة كان إلى العاصمة... والسبب هو هذا؛ وجدتُني ضائعا، مستنزَفا... كلُّ من يريد أن يأتيك، يأتيك بلا موعدٍ، يدقُّ عليك الجرس وأنت مركِّز، وأحيانا ضيوفٌ من بعيد يزورونك بدون إذن... فتقع في حرج، ولا بد أن تستقبلهم؟

وأحيانا يتصل البعض بالتلفون، فأضطر أن لا أقول الحقيقة...

قلت: الحكم الذي تدخَّل فيه الله تعالى ليحمي رسول الله في حياته الخاصة، هو البرنامج اليومي: «**وإذا طعمتم فانتشروا**...» أي لا تضيعوا الوقت لرسول الله ﷺ

فلديه رسالة ووظيفة أخرى... وما ذلك إلاَّ لأهمية الوقت عند العالم.

عقدة الجلوس في المقاهي

الطالب: وماذا عن «الجلوس في المقهى» وهي من العادات المستفحلة في الجزائر، وفي البلاد العربية بعامَّة؟

الدكتور: لستُ ممن يجلس في المقاهي أو يحبِّذ ذلك، فأنا أكرهُ هذه الأوقات التي ينفُر فيها البعض إلى مقهى ليغتالوا أعمارَهم، ولقد وصل بي الأمر إلى «حدِّ العُقدة» (وهي عكس القَعْدَة). وذلك في جميع مراحل حياتي: الجزائر، القاهرة، عمان...

ولقد ذكرتُ لك من قبلُ ـ في فترة دراستي بالقاهرة ـ أنَّ الشيخ دبوز كان نسيجَ وحده في العلاقة بالوقت... وأنه يحاسب نفسه على كلِّ دقيقة من عمره، ماذا عمل؟ ماذا حقَّق؟ فيما فرط؟ وأنَّ صورة كُره المقاهي والجلوس فيها مثلا، أخذناها منه... ولا نزال نزوده بالدعاء عن ظهر الغيب، رَحِمَهُ ٱللَّهُ برحمته الواسعة.

الانتظار

الطالب: أشار إلى إدوارد هول وكتابه «رقصة الحياة»[1] ودراسة الانتظار في العالم العربي... وما ذكره عن كارثة الانتظار حين أجرى بحثه عن «الانتظار في الإدارة بمصر»...

ثم السؤال عن الدكتور ناصر: حين يكون في انتظار أحدٍ، ولا يأتيه في الموعد، ماذا يحسُّ؟ وكيف يعبر عن ذلك؟

الدكتور بحزمٍ ظاهر على سحنة وجهه المشرق: لا توجد لحظة أكرهُها في حياتي أكثر من تلك اللحظة (لحظة الانتظار)... أمقتُ تلك الأوقات... هي ثقيلةٌ عليَّ... ودوما أقول لأبنائي: «لا شيء أكرهه كالانتظار». حين أعقِد معك موعدا على السادسة، يجب أن تكون على السادسة تماما في الموعد، لا تذرني أنتظرك...

هذه التجربة، أي الانتظار في الإدارة مرت عليَّ في

(1) **رقصة الحياة: البعد الآخر للزمان**؛ تأليف إدوارد ت. هول؛ ترجمة: نظمي لوقا؛ دار كتابي - القاهرة؛ 1984م.

مصر، حين كنت أبذل جهودا لترسيم شهادة «معهد الحياة»، في قسم «مصلحة الطلبة الوافدين» في جامعة القاهرة، كلُّ شيء عن الطلبة الأجانب يضبط هنالك: التسجيل، المنحة... وكنت أزور تلك الإدارة لأجل وثائق معينة، وكان الأستاذ (رُميْس) مسؤولا عن المصلحة، ولم أكن معتادا على الروتين والانتظار.. . فأنا انتقلت رأسًا من القرارة إلى القاهرة... وكنت أعيش ضائقة نفسيةً، لأنه إذا دخل أكتوبر ولم أسجل قد يضيع العام مني، أو أرفَض كلية...

أحيانا أذهب إلى الأستاذ (رُميْس) أترجَّاه (أحلِّله، بالدارجة)، ثم يجيبني: «حِلمك.. حِلمك.. صبر قليل.. الصبر جميل...».

حتى إنَّه علق على مكتبه إطارا مكتوب عليه: «الصبر جميل». يقتلني همًّا، (قالها بالمزابية).

ومثل هذه الحال عشتُها في عمان كذلك؛ فأحيانا يكون الجواب حين أستعجل أمرًا ما، وأرفض الانتظار، يقال لي: «هي الدَّنْيَا رَاحَتْ؟»

سألت الدكتور: وماذا عن اللقاءات الطويلة في عُمان، وما يُعرف بـ(تستقهوي)[1] وفيها غالبا من الخيرات

(1) عادة القهوة في عمان، ترسيخٌ للكرم الحاتمي الذي عرف به أهل عمان، فهي =

ما لا يوصف، ولكن داخل اللقاء قلَّما يستفيد الحضور فائدةً ذاتَ بال للأسف؛ وإنما مجرد تكلُّف واعتبارات، ووقوفٌ وجلوسٌ [1]... وحتى أحيانا كثيرة يكون الجميع ساكتا، والوقت يمرُّ بلا إحساس...

ومع احترامنا، نقول: أحيانا يكون الأمر مع مشايخ وعلماء وعِلية القوم، وليس مع البسطاء فقط... ولا نعمِّم طبعا؛ ذلك أنَّ منهم من رفَض الوضع إلى حدٍّ ما... كيف نفهم هذا، حتى من الناحية الشرعية؟ ومن جهة أخرى، ثمة كفَّار يخططون لك، لا ينامون وهم يدبرون أمرهم في شأنك؟ وأنت هكذا تقبل الوضع وتتقبله، وقد تبرر له؟

◉ **الدكتور يجيب**: في عُمان، نفس التصرف الذي كنت أتصرفه مع إخواني في القرارة، أعتزل هذه المجالس كلية، ولا أقبل الدعوات... ومع الوقت لدماثة خُلقية فيهم

= ما يقدم للضيف ولا تقتصر على تقديم القهوة كما قد يتوهم من الاسم، بل تصحبها «مأدبة» بمعايير أقوام آخرين، فهي تحتوي عادة على أنواع مختلفة من الفواكه، وتمر وحلوى عمانية وتختم بالقهوة. ومن كرم أهل عمان أن الحاضر في هذه الضيافة قد يجبر لزيارة أحد الحضور في بيته وقد يضيّف بأضعاف ما قدم له في البيت الأول.

(1) هي عادة في عمان تنمّ عن احترام وتقدير لكل من يدخل مجلس الضيوف، فيقوم له كل من في المجلس ولو كان الداخل صبيا أو طفلا صغيرا فيسلم عليهم جميعا ولا يجلسون إلا عندما ينهي التسليم على الحضور واحدا واحدا وعندما يجلس شيخ المجلس أو الأكبر في المجلس.

يَعرفون طبعَك، فلا يُحرجونك... وفي بعض الأوقات قد يزورك الواحد منهم على الساعة الحادية عشر ليلا، وأنت متعبٌ تريد أن تنام، فيدقُّ عليك الجرس...

ويقول: «نَرْمْسُ» أي «نْقصْرُو» (نسمُر)...

فكنت لا أفتح الباب لأحد إذا كان الوقت غيرَ ملائم، مهما يكن هذا الذي يأتي؛ ومع الوقت والحمد لله فهموا وألفوا... فلم يعد ثمة حرجٌ... والغريب أنه لا أحد يناديك بالهاتف، وإنما يأتي على غير موعد بلا إخبار مسبق...

ومثل هذه «القهوة» تكون حتى في المعهد (معهد القضاء الشرعي)، من العاشرة إلى العاشرة وعشر دقائق، هناك قهوة ورمس... وراحة... وجماعات... وهالة من الشباب... وحول شجر السدر يجلسون... قهوة و(رمس)...

مرارا وتكرارا أتحاور مع المدير لعلهم يغيرون هذه العادة، فيقول: ما عساي أفعل، هؤلاء مشايخ (وهم طلبة شباب اسْتَشْيَخُوا) أمَّا أنا، فأقول لهم: عوضَ النزول إلى الفسحة، ادخلوا المكتبة، فهي من أغنى المكتبات في سلطنة عمان، ولا تطالعوا الكتاب، ولكن فقط مرروا أعينكم على العناوين، احفظوها، اعرفوها، قيدوها ليوم تحتاجونها فيه... لبحث أو دراسة أو مادة، فتجدونها

مرسومة مصورة في أذهانكم...

ويمكن أن نستثني بعضا من الشباب، منهم مثلا سلطان الشيباني... وغيره ممن حمل نفسه على الجدية، وحقق الكثير.

العطلة والراحة والرياضة

- القيلولة وأوقات النوم
- عطلاتي الصيفية، كيف أقضيها؟
- الغابة والعطلة
- الرياضة
- الرحلة عبر أوروبا
- وقت العائلة والأبناء

القيلولة وأوقات النوم

الطالب: الراحة ضرورة من ضرورات الحياة، وتنظيمها سبب من أسباب النشاط؛ فما هي أوقات النوم ليلا في برنامجك الزمني؟ وماذا عن القيلولة؟

الأستاذ: بما أني أقوم في السحر، فإني غالبا ما أذهب للنوم في وقت مبكر، بعد العشاء بساعة تقريبا؛ وذلك حسب الفصل: بطول لياليه شتاء، وقصر الليالي صيفا؛ والتوسط في ذلك ربيعا وخريفا.

أمَّا القيلولة في برنامجي الزمني فهي لازمة وضرورية.. ولقد عبرت عن ذلك بقولي: «إذا أردت أن تغيظني فامنعني من القيلولة، أو قل لي: لا تقيل»[1].

حتى وصل بي الحال أنني في التدريس في الجامعة بالجزائر، كنت أطلب من الإدارة عدم برمجة حصص لي في هذا الوقت؛ وكذلك كان الحال في معهد القضاء الشرعي بعُمان.

(1) ينظر: **القيلولة في الفكر الإسلامي مقارنة بالفكر الغربي**، ضمن كتاب **مطارحة معرفية مع بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، ومقالات أخرى في القرآن والمنهج والفكر**، محمد باباعمي، معهد المناهج وثريا للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص201.

عطلاتي الصيفية، كيف أقضيها؟

الطالب: حدثنا عن عطلاتك الصيفية بعد مرحلة الزواج، أي في مرحلة التدريس بمدرسة الحياة؟

الدكتور: بعد زواجي في ماي 1959 والتحاقي بمدرسة الحياة مدرِّسًا، أصبحتُ أقضِّي عطلاتي الصيفية في العاصمة مدرِّسا لبعض التلاميذ الذين يرغبون في أخذ الدروس الخصوصية في اللغة العربية... فكنت أقضي العطلة في محل خالي إبراهيم بن حمو إلى جانب ابن خالي محمد حيث أقضي أياما سعيدة بين الفسحة والعمل والاستجمام على شاطئ البحر والاستمتاع بطبيعة الجزائر وجبالها الخلابة.

«وكنت أستغلُّ الفراغ من التدريس لهوايتي في كتابة الشعر»[1].

(1) ذكرياتي ومذكراتي؛ ص110-111.

الغابة والعطلة

الطالب: البستان أو ما يعرف بالمزابية بـ(الغابة)، وكذا الطبيعة والجبال والخضرة... هو المكان المفضل لك؛ فهلا وسعت في ذلك؟

الأستاذ: نعم، صدقتَ، أصبحت الغابة بالنسبة إليَّ المكان المفضل الذي أقضي فيه أوقات عطلاتي المدرسية والأسبوعية والسنوية... وما زلت إلى الآن ـ وقد تقدَّمت بي السن ـ أرى في واحة القرارة وصحرائها ملاذي الوحيد من أتعاب نفسية أو جسدية، ومأواي الحميم الذي أقضي فيه أجمل الساعات منفردا أو مع أبنائي وإخواني وأصدقائي[1].

(1) ذكرياتي ومذكراتي؛ ص96-100.

الرياضة

الطالب: هل تمارسُ الرياضة؟ وما هي رياضتك المفضلة؟ هنا في العاصمة، وفي القرارة، وفي عمان؟

قال الدكتور: عندما كنت في عمان كنت كثيرَ المشي، ما بين البيت والمسجد، والحمد لله، ودوما أقول: لم أفقد شيئا في عمان مثل صلاة الجماعة... وحين المشي، كان لدي وردي «يس، الواقعة، الملك» والغالب أصل المسجد وقد أتممت قراءة الورد، وكذلك الأمر في الإياب...

وكنت دائما، أتذكر بيت الشاعر، وأتفلسف مع نفسي: ما الذي جاء بك إلى هذه البلاد النائية؟ بخاصة حين خبر الوفاة من أقاربك ولا تحضر الجنازة؟ أو هاتف من البلد من الأبناء (قصيدة آخر العنقود)

أردد بيت الشاعر:

مشيناها خطًى كُتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها [1]

(1) من قصيدة للشاعر عبد العزيز الدريني، ولد في المنصورة، عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في مصر؛ وله شعر من السهل الممتنع.

الرحلة عبر أوروبا

الطالب: وماذا عن الأسفار والرحلات؟

الدكتور: حين كنَّا في القاهرة بدأت رحلُتنا أنا والأخ محمد دجال يوم الثلاثاء 15 جوان من سنة 1965 على الثالثة عشية من الإسكندرية وجهة اليونان، وفي صبيحة الأحد 20 جوان نزلتُ نابولي، المحطة الأخيرة لرحلتنا البحرية[1]. وابتدأت بعد ذلك جولتنا البرية في إيطاليا زرنا خلالها نابولي، وبومباي، والفاتيكان، وميلانو وغيرها من المدن الإيطالية، وبعدها زرنا لوزان وجنيف في سويسرا، وكان المخطط أن ندخل فرنسا بعد ذلك، لكن الرحلة توقفت.

«أوقفتنا الشرطة الفرنسية في حدودها مع سويسرا ... فاعتذر المسؤول بعدم سماحنا الدخول إلى فرنسا لأن التعليمات تقتضي أن يكون مع كل مسافر (50 ألف فرنك) كحد أدنى للسماح بالدخول إلى فرنسا ... فما كان منا إلا العودة بالقطار إلى جنيف.. وتوجهنا مباشرة إلى القنصلية

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص270-272.

.. واستقبلنا الكاتب العام استقبالا طيبا.. واطمأن الرجل إلينا.. سمعت القنصل يقول له بالحرف الواحد: ما داموا من وادي ميزاب فأعطهم ثمن تذكرتين للعودة بالطائرة إلى الجزائر فورا، وخذ منهم ضمانا شفويا بإرجاع القرض بعد وصولهم إلى الجزائر سالمين»[1]، وهو ما قمنا به مع رسالة شكر عميق للرجل ولموقفه الشهم المفضال معنا.

الطالب: منعت من دخول فرنسا في المرة الأولى، لكن دخلتها بعد ذلك؟

الدكتور: نعم كان ذلك في إطار جمع المادة العلمية لبحثي «لنيل شهادة الدكتوراه الحلقة الثالثة تحت إشراف الدكتور شكري فيصل بعنوان: **المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها** (1847ـ1939)... في صيف 1969م؛ حزمتُ حقائبي للسفر إلى باريس لهذا الغرض، وكان بمعيتي صديقي العزيز فرصوص أحمد الذي أوْفده الشيخ أبو اليقظان ليبحث عن التراث الإباضي المخطوط في مكتبات أوروبا.. ومسحتُ كلَّ الصحف الصادرة في الفترة ما بين 1847م حتى سنة 1956م في عمل بدني وفكري ومادي شاقٍّ.. وقضيتُ في رحاب هذه المكتبات قرابة شهرين، وكنت أستعين في بعض الأحيان بزميلي وصديقي

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص283-286.

أحمد فرصوص.. وقد استفدنا من رحلتنا هذه إلى باريس بأن اتخذناها نقطة انتقال إلى دول أوروبية أخرى، زرنا خلالها لندن، وكامبردج بإنجلترا، وزرنا ألمانيا الشرقية والغربية، وفي العودة من فرنسا على طريق البر زرنا الأندلس، والمغرب..»[1].

(1) ذكرياتي ومذكراتي؛ ص311-318.

وقت العائلة والأبناء

جابر بوحجام: لديك يا والدي (جدي)، وقتٌ عزيزٌ مع العائلة، هلاَّ حدثتنا عنه؟

الدكتور: أكيد... أكيد... حتى إني أوصي جميع أبنائي وأحفادي والعائلة من حولي أن لا يغيبوا عن اللقاء؛ وأنت تشاهد علبة أرشيف هناك في الرف، مكتوب عليها: «محاضرات الحِلق الأسرية»... وهذا البرنامج تجاوز عشرا من السنين كاملةً... أقول لأبنائي: جلسة عشية الجمعة واجبة، إذا كان لديك سفر أجِّله، أو موعدٌ فأخره.. لتحضر اللقاء بين الأسرة... فيأتي الجميع كلهم، «بقدِّهم وقديدهم»؛ بغرض زرع روح الأُلفة بينهم[1]... في هذه الأسرة... ودعائي الذي لا يغادر بين أفراد الأسرة: اللهم اجمع بين قلوبنا...

(1) وانظر قصيدة «**أخي نعم السارية**» في ديوان «**بعد الغسق يأتي الفلق**»؛ ص120.

بين الديني والاجتماعي

- الانفصام بين الدين والمجتمع في العلاقة بالوقت
- المسجد
- البرنامج الزمني للمرأة
- التقاعد، والتقاعد المبكر

الانفصام بين الدين والمجتمع في العلاقة بالوقت

قلت له: أستاذي، لديَّ مفارقة أقلقتني معرفيًّا، وأنا أبحث فيها، وهي أنَّ مجتمعنا بالدين الذي كان معه ربى ونمى هذه القيَم، ثم غادر الدينُ إلى جهةٍ، والمجتمعُ سافر إلى جهةٍ أخرى؛ فصار الخطابُ الدينيُّ، حتى ولو كان مواعظ عن أهمية الوقت، صار خطابًا باردا لا أثر له على النفوس، وإنما استحال إلى خطابٍ لفظيٍّ ميت... أمَّا المجتمع فبات يتحرَّك ويتصرَّف على أسس غير الأسس التي يؤمن بها: مباراة كرة قدم، سمر طويل، عدم التزام صلاة الجماعة، غياب البكور، طول الانتظار، تضييع الوقت... فوجد الإنسان نفسه مشتتا بين قارتين: قارة الدين (المسجد، الصلاة)، وقارة المجتمع (الواقع، الإعلام)... هذا الانفصام، ألا تجد فيه خطورة على المجتمع عموما؟

لاحِظ أستاذي، الخطابَ الديني في مجال الوقت لا يقنع حتى المتديِّن نفسه، لأنه ينطلق من نصوص أساسًا أنت تعرفها وتحفظها، بأسلوبٍ خطابيٍّ رتيب... ثم حين ينتهي تغادِر إلى واقع الحياة، فتجد الحياة خلاف تصورات الواعظ، لا تلائم أوامره ونواهيه...

فهل يا أستاذي تجد أنَّ هذه المفارقة صادقة؟ أم لا؟ وما ذا تزيد عليها؟

أجاب: مائة في المائة أنا معك... أوافقك في هذه النظرية... ذلك أننا (نحن المجتمع) فقدنا كثيرا من القيم، ففي القرارة مثلا، كنت حين أعقد العزم على أن أنام بعد الفجر، وقت البكور، فإنَّ الذي يقلقني ويوقظني ما هو؟

إنها الحركة النشيطة للآلات الزراعية والبنائية (Tracteur و dumber) وهذا دليل على أنَّ الحالة نشيطة، الناس يقظون مستيقظون، يعملون ويتحركون، يبنون ويزرعون...

أمَّا اليوم فكثيرا ما نحاول أن نأتي بصاحب صنعة أو حرفة للعمل في البيت مثلاً، ثم نقول له: «موعدنا السادسة صباحا»، فيجيب: «لا يمكنني أن آتيك باكرا، أنا آتيك على الثامنة والنصف فما فوق، أفطر، آخذ قهوتي أو شايِي بهدوء وراحة...».

يضيف الدكتور: هذا أمر عجيب؛ بل أكثر من هذا وذاك؛ فأنت أحيانا تشتهي أن تفطر بخبز طري سخينٍ في البكور؛ فترسل الأبناء ليشتروه، ثم يعودون بخفي حنين، ويقولون: كل المخابز والدكاكين مغلقة في السادسة صباحا...

ما هذا التشوه في تصوراتنا، وأفكارنا، ومواقفنا...؟

بل، أنا حين أذهب إلى مركز تصفية الدم على الساعة السابعة إلا ربع غالبًا، ثم أمرُّ بتلك الحوانيت التي بنيت حول معهد الحياة وهي كلها مغلقة؛ فأقول: لماذا إذًا بنيناها؟ ولمن بنيناها؟ وماذا ننتظر من هذا؟ وأنتم ترون أنَّ عدو دينكم يتربص بكم الدوائر، وينشط في تحطيمكم وتحطيم قيمكم...

إلى متى؟ ومتى نستفيق؟

قصَّ لي الدكتور نكتة بينه وبين الشيخ أبي اليقظان إبراهيم[1]، بعد زواج الدكتور بأسبوع، وكان لدى الشيخ

(1) ذكرت للدكتور ناصر حادثة زيارة الشيخين البكري عبد الرحمن والشيخ سليمان بن يوسف، وهو في بيته بالعاصمة، الطابق الرابع، قدما صباحا إلى دكان «العربية» وقالا لشاب (هو الذي نقل لي الحادثة، وقد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أبو اليقظان خالُه، لعله من عائلة "العَرْبي " للتحقيق) قل لأبي اليقظان: فلان وفلان في زيارتك... فقال لهما: أبو اليقظان لا يستقبل في هذا الوقت، قالا: هذا ليس شأنك، قل له وكفى... ثم صعد إلى الطابق الرابع، فوجد زوجة الشيخ في استقباله، فأجابت: أبو اليقظان لا يستقبل في هذا الوقت، ثم نزل، فبلغ الخبر... قالا له: قل لزوجة الشيخ هذا لا يعنيك، قولي لأبي اليقظان ذلك...ثم صعد وبلغ الخبر، ففتحت باب غرفته (مكتبه) الذي يؤلف فيه مقالاته، فقالت: فلان وفلان في زيارة... قالت ذلك من خارج الباب المفتوح قليلا، وبلغة الإشارة أجابها وقال: لا، مِن بعدُ، أغلقي البابَ...وفي العشي عادا لمهمة عاجلة، وكان أبو اليقظان جالسا للشاي، فاستقبلهما بحفاوة بالغة؛ ووقف فشد بيد أحدهما وقال له: «لا تقطعوا عليَّ =

مجلة (المصور)، تأتيه من القاهرة، وكان الدكتور يتحايل عليه ليستعير عددا منها، فزار أبا اليقظان، وحين انتهت حصة المطالعة، قال له: أرجو أن تعير لي عددا من المصور لأقرأه؟

قال الشيخ: لماذا، وماذا تريد منه؟

أجاب الدكتور بعفوية: لأمضي الوقت (أضيعه) فيها.

قال أبو اليقظان: سأقول لك من بعدُ أين تضيع وقتك (معزِّضا بالزواج، أي قضِّه مع زوجتك لا مع المصور).

= حبلَ تفكيري، وأخبروا الأمَّة بذلك».

المسجد

الطالب: عرفت القرارة بعمارة المسجد[1]؛ ولا ريب أنَّ عمارة المسجد تشكل علامة في برنامجك اليومي، هلا توسعت في ذلك؟

الدكتور: حين كنا صغارا، كنا حريصين على الذهاب إلى المحضرة بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاة المغرب والعشاء، نتلذذ بالقراءة الجماعية لسور القرآن. هكذا كان حضور المسجد في حياتنا اليومية في كل مراحل أعمارنا من الحضانة إلى الجامعة، وهكذا كان فضاؤه الروحي يرتبط بأعز ذكريات أيامنا[2].

والفضل في الارتباط بالمسجد يعود إلى المجتمع، وإلى والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلى الشيخ عدون الذي كنا في السَّحر نجده يسابق إلى المسجد، ويلحق بصلاة الجماعة... يعني، هو عنوان الانضباط مع الوقت، ومحاسبة النفس، وهو في ذلك فريد ونادر المثال... وقد نشأ أبناؤه على هذا، بل وأنشأ جيلا كاملا على هذه الخلال الحسنة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(1) **المجتمع المسجدي**؛ إعداد محمد ناصر بوحجام، ط.1، المطبعة العربية. ط.2، مكتبة أبي الشعثاء، السيب، سلطنة عمان، 1411هـ/1990م.

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص103-106.

البرنامج الزمني للمرأة

الطالب: لاحظتُ أستاذي وأنا أقرأ مذكراتك، من خلال البرنامج اليومي لوالدتك (لالة حمو)، أنها كانت تعمل بحرَ اليوم، من قبل الفجر إلى أن ينام الجميع؛ بخاصة في بيت العائلة الكبيرة...

علق الدكتور: هي أوَّل مَن... وآخر مَن...

ثم قلتُ: أمَّا الرجل فلديه منافذ للهروب: البستان، ولقاءات الخلان، أو مكان لا يراه فيه أحد حتى داخل البيت، ومن ألف الذهاب للمقهى فهو ملاذه...

سؤالي هو: ماذا ترى في هذه الحال؟ هل هي طبيعية؟ هل فيها إشكالات شرعية، وتبعات اجتماعية؟ هل ترون فروقا بين الرجل والمرأة؟ وكيف الحال مع البنات في هذا الزمن، وهنَّ يلجن الجامعات، ويشغلن الوظائف...؟

ثم قلت له: أتذكر صديقا، من حزب إسلامي، وهو من أعز الأصدقاء، كنا ندرس معا في مرحلة من مراحل دراستي، فألفيته يوما وهو يبكي؛ فسألته: ما دهاك؟

أجاب: لا أجد السعادة، فأنا والمرأة ندخل البيت

سويًّا، ونخرج سويًّا، وهي كذلك من الحركة، ولديها مسؤوليات ومهامُّ في الحركة؛ وعليَّ أن أشارك في الطبخ، وغسل الملابس... وهي كذلك، لديها وقت طويل للبحث، وللذهاب إلى المكتبات والملتقيات... فإني لا أجد السعادة التي كنتُ أحلم بها... وبيننا دوما خلاف محتدم... ثم ألقى اللوم على المرأة المثقفة، التي نفعت نفسها وأضرت بزوجها وعائلتها... على حد تعبيره...

كيف تعلق على هذه الحال للمرأة، في حياتها، وفي برنامجها اليومي، وتقطّعِها بين مهام عائلية فطرية، ومهام وظيفية حضارية؟

الدكتور ناصر: هذه القضية من القضايا الكبرى، وهي من الملفات الملغَّمة جدا، والتي ينبغي للأمة أن تفكر فيها بجدية؛ وتسألَ نفسها: تعليم البنت نعم، ولكن إلى أي حدٍّ؟

ثم ذكر قصة حفيدة من حفيداته، كانت عند امرأة طبيبة أسنان؛ وحين عودتها ناقشت الدكتور، وأبدت رضاها من هذه الطبيبة، شاكرة لها، مستحسنة الوضع والحال...

فأجاب الدكتور: صدقتِ، هو أمر مستحسن وغير مستحسن في آن واحد... أمَّا بالنسبة لكِ، أنت التي استفدتِ من التداوي عندها، فهو أمرٌ مبارك ومحبذ؛ وأمَّا

لزوجها، وأبنائها، وعائلتها... فهم، ولا ريب، يدفعون ضريبة ذلك، غيابها عن البيت، وعدم قدرتها على الجمع بين المسؤوليات والمهام الوظيفية والأسرية...

ثم قالت الحفيدة: حقا، لقد ناقشتها في الموضوع، فقالت الطبيبة: فعلاً، صدقت، فمن ناحية نحن ننفع ونقدم خدمة للمجتمع، ومن ناحية أخرى نحن نضيع الكثير من سعادتنا وراحتنا وتربية أبنائنا...

ثم عاد **الدكتور** إلى الفارق بين الرجل والمرأة في البرنامج اليومي، مما هو من آثار ظلم اجتماعي لا غبار عليه، وهذا ينعكس سلبا على تربية الأبناء؛ وما هذا إلا لتخلي الرجل عن مسؤولياته الحقيقية، وإلقائه الثقل كله على عاتق المرأة للأسف... فالرجل حين يغادر البيت، يدفع أبناءه لمغادرتها، وللبحث عن أوكار للفساد بحر اليوم، أو الليل... بين طاولات الدومينو، والدخان... وما إلى ذلك... وهو ما نشاهده اليومَ في كل حي من أحياء بلدنا وبلدتنا... ونظريا يقول الأب في هذا: أنا وفرت لكم المسكن، والباقي لا يهمني ولا يعنيني، فتولوا أنتم أمركم بأيديكم...

بل، حتى الأمراض الجسدية والنفسية، فمن أسبابها الهروب من البيت، والبرنامج الزمني الطويل خارج الدار... فيما يعني وما لا يعني... والأكل في المطاعم،

والمقاهي... واليومَ كثير من شبابنا يشتكي من «القولون» وهذا سببه... وأنا أعرف في عائلتنا القريبة أربع أو خمس حالات...

نعم، أؤيدك في تعقد هذه القضية، وأنت لا تستطيع أن تجد لها حلا، لأن مسألة التربية هي مسألة أمَّة لا مسألة فرد لوحده... هذه الأمة التي تخلت... ولذا وجب أن يدقَّ جرس الإنذار في هذا الشأن... وأنَّ ثمة قيما ضاعت... ضاعت... ضاعت...

ثم إنَّ المسألة لها بعدٌ ماديٌّ كذلك؛ فالشاب حين خطبته يخطط ماديا لمستقبله ومستقبل أسرته: فهي موظفة، وصاحبة أجرة... أي هذه ستكون لي عونا ويدا... أو الفتاة حين تقبل الذي له سيارات، ومتاجر، ومال كثير... بغض النظر عن المعايير الأخلاقية الأخرى... و«ذات الدين» هي التي يقبل عليها الناس قديما، أما اليوم فهي آخر من يلتفت إليها...

قلت للدكتور: الغريب أنه في انجلترا مثلا، المرأة ربة البيت، حددت لها أجرة، كالتي للموظفة في مكتب أو شركة أو مدرسة مثلا... ذلك، أنه اقتصاديا، تنتج أكثر منها، وخروجها يكلف خزينة الدولة الكثير من النفقات... فقد حلت القضية اقتصاديا، ونبقى نحن المسلمين اليومَ نترنح، ولا نجد الجواب الشافي...

ثم واصلتُ: والملف الثاني الخطير، هو ملف تعليم البنت... لم نتخذ فيه إجراء حضاريا مقبولا... وكل الأسئلة التي تطرح في الموضوع لم نجب عنها باحترافية ومسؤولية... في المستوى، والشروط، والوظيف... في حقوق الأزواج... وأنا أعتقد أننا لم نول المرأة قيمتها الاجتماعية، ولا الموضوع قيمته الحضارية... ولقد وقعنا في استقطابات: بين محبذ ومخالف، متطرف ومتهور...

يذكر **الدكتور** أنه إلى اليوم في القرارة، ثمة من يعارض تعليم البنت، ومنهم من يخرجها من المدرسة في سن مبكر، ومن هؤلاء آباء من النخبة الشابة في مقتبل العمر... وهم ضد تعليم البنت... وهم أبناء العشرين حجة، أو أكثر بقليل... منهم من أخرج ابنته من المدرسة الحرَّة، مدرسة الحياة، متوسطة الحياة...

ومع ذلك، لدينا من خيار الأمة من كان يعلم ابنته في الرسمي لا في المدرسة الحرة، فكان معرَّضا لهتك حرمته، وعرضه، والقول فيه بغير ضابط من شرع أو عقل... حتى إنَّ البعض منهم اليومَ لديه عقدة تجاه العزابة، والمسجد، والمجتمع... بسبب هذا الملف الخطير جدا.

التقاعد، والتقاعد المبكر[1]

الطالب: عمر التقاعد الرسمي هو ستون سنة، وثمة تقاعد مبكر في الخمسة والخمسين، أو حتى قبل ذلك في بعض الحالات والظروف؛ ويبدو أنَّ الظاهرة تستفحل أكثر من ذي قبل، والمتقاعدون بكلِّ الصيغ تتنوع حالاتهم؛ ولقد كان المتقاعد في القديم، حين يخرج من وظيفه يتحول إلى حركية أخرى، من مثل البستان، أو فتح دكان صغير، أو الدخول في مؤسسة اجتماعية أو حرَّة عاملا ولو لنصف اليوم...

أمَّا اليوم، فكثيرا ما نشاهد كهولا لم يبلغوا الستين يجلسون على (دكانات) الأسواق بلا شغل؛ والظاهرة استشرت بخاصة في من لم يكن من أصحاب المهن الحرَّة مثل التجار، الذين غالبا ما لا يتقاعدون إلاَّ حين يعجزون،

(1) عمر التقاعد في الجزائر هو 60 سنة، أما التقاعد المبكر فهو 50 سنة باستيفاء شروطه.
ينظر: **التقاعد والعطل: أيهما ألْيَق بالإطار التربوي**، ص151، ضمن كتاب: **المخانق والمضايق، بحثا عن نقطة الانعطاف**، محمد باباعمي، نشر كتابك، الجزائر، ط.1، 2018.

وكذا الأصل في المشتغلين في حقل العلم أن لا تقاعد لهم، بل نهاية الوظيف بداية لمرحلة جديدة من العطاء (يعلق الدكتور: بعضُهم)

أقول: علم «اقتصاد الزمن» يحسب قيمة الوقت بالمقابل الماديِّ، ويقيِّمها اقتصاديًّا، ففي السوق مثلا، كم ساعة عمل تضيع الأمَّة يوميا جراء جلوس العشرات أو المئات ممن يقدر على العطاء، بطريقة أو بأخرى...

الدكتور بعد تعجب وحسرة وزفرة؛ قال: هذه الظاهرة أجدها بقوة حين أذهب صيفا إلى القرارة، وفي كثير من المجالس والمناسبات أثرتُ هذه المعضلة، مع دقِّ ناقوس الخطر؛ وهي ظاهرةٌ سلبية مَقيتةٌ؛ لأنها كانت مقتصرة على الشيوخ الهرمين أبناء السبعين فما فوق، أمَّا اليوم فهي تتهدَّد الشباب، أبناء الأربعين والخمسين عامًا، والواحد منهم مؤهل للعطاء، ثم إنَّ الشابَّ حركيٌّ في طبعه، وبالتالي فإنَّ تقاعده وقعوده، جلوسه كامل اليوم بلا عمل، يشغله بما لا يعني: بالأعراض، بالمارين، بالناس وهم يدبُّون في مصالحهم؛ وبالتالي ففي فعلتهم هذه ضياع لدنياهم وأخراهم؛ ومن أسباب هذا العطل ضعف أو انعدام المقروئية عند الناس[1]، فالناس لا يقرؤون... ضاعت قيمة

(1) قصصتُ على الدكتور قصَّة الشيخ أبي إسحاق اطفيّش، أنه في عام 1936 ألف كتابه «**الصوم بالتلفون والتلغراف**» ثم أرسل إليه أعيان البلدة رجلا =

الكتاب في عالم القيم عند المجتمع، واستشرى الجهل حتى بين كثير من المنسوبين إلى الثقافة والعلم...

فكثيرا ما أسأل البعض: هل قرأت هذا الكتاب؟ ما رأيك

= مقدَّمًا عاميًّا؛ ليساومه في إيقاف الكتاب الذي بزعمهم سيكون محلَّ فتنة، بل وحتى شراؤه منه وحرقه إن اقتضت الضرورة؛ فقال أبو إسحاق بطريقته المعهودة شدة وصلابة: «كتبتُ فاكتُبوا، انزل الأدرج واخرج من عندي» (رويت الحادثة عن الشيخ الحاج صالح بزملال).

ثم ضرب الدكتور مثلا بالمقروئية في القديم، أنَّ الشيخ أبا اليقظان حين يكتب رسالة، ويرسلها إلى عيسى تاعموت، يقرأها أهل العاصمة، ثم البليدة... ثم تنتقل بين المدن؛ ثم تعود إليه، فيضعها في الأرشيف... والمراسلة بين الاثنين مرة في الأسبوع دائما، وأحيانا مرتان في الأسبوع... مع صعوبة المواصلات، وبعد المسافات، والمخاطر في الطريق...

الدكتور: لو أنَّ أحدا كتب دراسة عميقة طويلة فقط عن رسائل الشيخ أبي اليقظان إلى ابنه عيسى، وما محتواها؟ ما أثرها؟ ما مصيرها؟... لكان عملا علميا عملاقا... وكثير من تلك الرسائل تمزقت في الطريق، ولحقها «الإدام» والزيت والصابون... إلخ. وكثير منها يسجل في رسالة لاحقة: ضاعت...

وكان أبو اليقظان يقول للذين يتعللون بعدم وجود من يطبع «ملحق السير»: أنا لا أنظر إلى من لا يقدر على طبعه اليوم، أنا أؤلف وأحضر، وسيأتي الله بعد زمن بقوم يعرفون قيمته، وينشرونه... (رؤية مستقبلية) ثم إنه يؤمن بما يفعل...

أمتنا كانت في حماستها للكتاب والقراءة أحسن بكثير مما هي عليه اليوم... ومثال ذلك الشيخ أبو إسحاق اطفيش، الذي كان له مشروع بعنوان «**تاريخ الإباضية**» جمع اشتراكاته قبل أن يؤلفه ويطبعه... بصيغة الاكتتاب، مثلما كان يفعل الشيخ توفيق المدني، وبذلك يموَّل وهو يؤلف، واليوم ضاعت هذه القيمة، ولا أحد يفكر في مثل هذا...

في هذه الفكرة؟ ولا أجد الجواب، ولا ردَّ الصدى... فمثلا، أهديت مائة وعشرين نسخة من ديواني الجديد، واحد فقط أجابني برسالة، على أنه قرأه... والباقي لا جواب...

فقدنا كثيرا من القيم، نحن نسبح في ظلام دامس... ومع ذلك، لا نفقد الأمل... غير أنَّ الواقع مؤلم... ويقولون لنا دائما: لكي تفهم واقعك قارنه بما سبق... نقطة الانطلاق ونقطة الوصول الزمنية...

خارج التصنيف

- الوقت العمانيُّ
- المرض
- مع كلام رب العالمين
- الابن باباعمي والزمن
- الغربة قدرنا: الرجل في غير زمانه، وفي غير مكانه

الوقت العمانيُّ

يقول الدكتور: كانت أيامي وسنواتي بل كل لحظة من أوقاتي في السلطنة تمرُّ مرا سريعا، لا أكاد أشعر بالدقائق والثواني والساعات، فما تكاد تشرق شمس يومٍ جديد حتى تغرب في سرعة فائقة، ولا أدري أيعود هذا الشعور مني - ومن كثير من زملائي - المغتربين إلى قِصر اليوم في أقصى الشرق مقارنة بالغرب، أم أنه السعادة والأمن والهناء وسيرورة الأحوال دون منغِّصات أو عراقيل في مجال العمل هناك، أم لأن طيبة أخلاق العمانيين وحسن تعاملهم... هو الذي غمرني بالدفء.

المرض

إنَّ الذي نغَّص عليَّ حياتي هي عوارض هذا المرض التي بدأت تشتدُّ وأنا بعمان سنة 2002م... وعشت تلك الأيام العصيبة بين الحياة، سجين غرفة نومِي...وهكذا كانت الأيام تمرُّ أمامي، وسرعان ما تعودتُ واقعي الجديد[1].

وحين عدتُ إلى الجزائر[2]، واشتدَّت وطأة المرض، ما

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص749-754.

(2) كان لظروف تمدرس أبنائه الذين تركهم في الجزائر أكبر أثر في تفكيره في العودة نهائيا إلى الجزائر، وما زاد من ضغط التفكير في هذا القرار الرسالة التي وصلته من ابنه، حيث يقول الدكتور ناصر: «جاءتني ذات عيد من سنة 1997 رسالة طافحة بالمشاعر المنتفضة من ابني الأصغر جمال يشتكيني فيها وحدته وغربته وضياعه وحيدا في الجزائر إذ لا أمّ ولا أب» (**ذكرياتي ومذكراتي**، ص697). وقد خلد هذه الحادثة بقصيدة «**آخر العنقود**» (**الأعمال الكاملة**، ص362)، يقول في مطلعها:

قال لي فِلْذَتي بحزن شديد ... وهو في العقد آخر العنقود
أنا شوقي لأن أناديَ أمّي ... وأبي، كاليتيم في يوم عيدِ
من أنادي أبي، من أناديـ ... ـه أمي لدمعتي وسعودي؟

فعاد إلى الجزائر في جوان 1998، على أنه اتفق مع إدارة معهد العلوم الشرعية في سلطنة عمان أن يدرس سداسيا واحدا في السنة، وكان الأمر كذلك بداية من سنة 2000 إلى غاية 2004 أين عاد نهائيا إلى الجزائر لاشتداد =

كنتُ أغادر الجزائر العاصمة إلاَّ في العطل الموسمية أو السنوية، وكان يجب حين أكون في القرارة أن أسافر ثلاث مرات في الأسبوع ذهابا وإيابا إلى مدينة بريان التي تبعد ثلاثا وسبعين كلم في القر أثناء الشتاء أو في الحر الشديد أثناء الصيف[1].

= وطأة المرض عليه، وإصابته بمرض القصور الكلوي.

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص758.

مع كلام رب العالمين

كان من أصعب ما واجهني في حياتي بعد مرضي بالقصور الكلوي، ذلك الفراغ الكبير الذي غير حياتي إذ لم يعد في استطاعتي أن أملأه بعمل ما، أقصد عملا رسميا، يجعلني أخرج من البيت كل صباح لأعود في المساء، كما كنتُ قبل اشتداد المرض عليَّ ؛ فليس أصعب على السويِّ من الفراغ الذي لا يستطيع معه أن يخطط برنامجه اليومي خارج البيت؛ فلا يسعه إلا القعود حبيسا بين جدران أربعة مهما كانت استطاعته الخروج معنويا بإشغال نفسه بالمطالعة، أو الكتابة، أو استماع إلى حديث أو وعظ، أو قراءة القرآن؛ فإن مجرد الشعور بأنك حبيس البيت يجعلك تشعر بالقلق والتوتر، بحثا عن عمل ما خارج الجدران الداخلية النفسية...

على أنني والحمد لله لستُ ممن يكره الجو العائلي بما فيه من صخب وضجيج... وهكذا أصبحت مقيدا في تحركاتي، وتنقلي، لا أغادر العاصمة إلا لضرورة قصوى؛ لأن برنامج تصفية الدم اثنتي عشرة ساعة كل أسبوع، يحتم علي الارتباط بمركز بن عكنون بالعاصمة... وهذا منعني

من سفريات إلى الخارج أو الداخل دون استعداد مسبق، فحُرمت من هذه النعمة، والأمر لله، نعمة السفر التي أغبط عليها الأصحاء الأسوياء، والحمد لله على كل حال[1].

وكنتُ أبحث عن عمل ينظّم حياتي خارج البيت أخفّف به عن نفسي معاناتها تلك، فكنتُ أخرج من حين إلى آخر إلى محلات أبنائي التجارية هنا وهناك، أشغل فيها وقتي، وكنتُ في هذه الأثناء بصدد بناء محلين تجاريين وسكَنيْن بالحميز شغلتُ بهما نفسي بعض الوقت، أكسِر بهذا الانشغال الروتين اليومي ولا سيما في النصف الأول من النهار، أما باقي اليوم فكنتُ أملأه بمشاريعي العلمية التأليفية التي لم تتوقف قط ولله الحمد والمنة.

كما كنتُ أشغل نفسي بتلك الدروس التي كنتُ ألقيها في مسجد المنار بالحميز[2] وهي دروس من القرآن الكريم،

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص779.

(2) مركب المنار بالحميز: انطلق نشاطه سنة 1421هـ/2001م، والذي يسعى في أهدافه العامة إلى: التوعية والإرشاد الديني، نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة والصحيحة، المساهمة في إصلاح الأوضاع الاجتماعية ومحاربة الآفات، الاعتزاز بالانتماء الحضاري للإسلام، وتوحيد صفوف المسلمين، إبراز الدور القيادي للإسلام في إدارة شؤون الفرد والمجتمع، تثمين جهود المؤسسات العرفية في المجال الديني والاجتماعي، إبراز الطاقات الشبانية في الأمة وتأهيلها. ويضم في وحداته: مدرسة المنار القرآنية المسائية، مدرسة المنار الصباحية بأطوارها من التحضيري إلى الثانوي، التكوين =

اخترت لها عنوانا مناسبا وهي (مع كلام رب العالمين)[1]، كان الإعداد لها يأخذ من وقتي ما يستحقّه جلال الموضوع وقدره[2].

= المهني للبنات، المصلى، ومكتب الوعظ والإرشاد... إلخ.

(1) «**مع كلام رب العالمين**» في جزءين، نشر جمعية التراث- القرارة، 2014 و2017.

(2) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص780.

الابن باباعمي والزمن

كتب الدكتور ناصر في مذكراته: ...ولعلي أسمح لنفسي القول ـ لما لي عليه من دالة ـ بأنَّ سرَّ تفوق الابن الدكتور محمد باباعمي هو انضباطه، والتزامه، وحبُّه للعمل، ومحاسبة نفسه على أن لا يضِّيع من وقته ثانية يعرف أنه سيحاسبه الله عنها كيف قضاها؟ وماذا عمل بها؟

وفي مراسلة مني للدكتور ناصر، من مكتبه، في بيته، كتبت له بعد أن غادر إلى عُمان هذه الرسالة، ونشرها في مذكراته حفظه الله:

«أستاذي الساعة الثانية عشرة ليلا، وأنا جالس إلى مكتبك أخط إليك كلمات دعاني قوله تعالى: «**وأما بنعمة ربك فحدث**» إلى الإدلاء بها»؛ «أستاذي، هكذا فيما لا يزيد عن ثلاثة أيام تمكنت من الاستفادة بما لم أستفد به في الجامعة خلال نصف سنة»[1].

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**؛ ص572-573.

الغربة قدرنا:

الرجل في غير زمانه، وفي غير مكانه

الطالب: لدي انطباع أنَّ الدكتور ناصر، من خلال ما تقدم، يعيش في غير زمانه، وفي غير مكانه...

ضحك الدكتور ثم قال: محمد علي دبوز الآخَر...

ثم واصلتُ: بمدلول آخر، طبيعيٌّ أن لا يُفهَم...

ثم سألته: هل هذه الحال، وهذا الإحساس يجعلك تجد الغربة... كيف ذلك؟

الدكتور (متأثرا): نعَم، غربة وأيُّ غربة... أنا أحسُّ بالغُربة من جهتين: مِن الذين لا يفهموني، ومن إخوة لي غادروا وتركوني وحيدا... لا يسألون عني، ولا يبحثون عن أخباري، ولا يهمهم أمري... وهذا يذكرك بقصيدة «ثمانون مرَّت»[1]...

وهذه هي طبيعة الإنسان، والموت والفناء لا بدَّ يوما ما

(1) ديوان «**بعد الغسق يأتي الفلق**»، نشر دار ناصر- الجزائر، ط.1، 2018، ص99.

أن يلحق بنا، ويُلحقنا بحتفنا، ثم يتركنا هنالك غرباء في القبور... بخاصة أنا، في المستشفى، لديَّ مشاهدُ أراها يوميا، حين أذهب إلى تصفية الدم؛ من ناس كانوا ينامون إلى جواري، ثم يرحلون إلى الجهة الأخرى، يلحقون بالأموات وقد كانوا من الأحياء...

الحمد لله على كل حال، نسأل الله حسن الخاتمة، ونتمنى من الله سبحانه أن لا يعاقبنا في أخريات حياتنا... يقول لي والد الشيخ الحسني رحمه الله، قبل أن يتوفاه الله: «أنا أتمنى على الله ما نَحْصَل ما نْحَصَّل»... قلت له: أنت محق، وهذا ما أتمناه اليومَ؛ وفي أخريات الحياة نتمنى أن لا نكون عالة على مَن حولنا، أو يصيبنا خرفٌ مثلا، فنفتن كما فتن الكثيرون ممن نعرف... نسأل الله حسن الخاتمة...

ثم دعا «اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»..

الملاحق

- الدكتور محمد ناصر: البنوة البارة، والأبوة الفياضة
- الزمن في أدبيات محمد علي دبوز (المراسلة نموذجا)
- كيف تعرفت على محمد باباعمي؟
- نموذج من المراسلات (بين الطالب والأستاذ)

الدكتور محمد صالح ناصر:
البنوة البارة، والأبوة الفياضة...

«وسوف تظل علاقتنا، أو بالأحرى علاقتي أنا بك، كما كانت وثيقة بعطائها الروحي الأبوي الفياض، وعسى أن تكون من جانبك أيضا عطاءً سخيًّا من البنوة البارة، والتتلمذ الوفي»[1].

الحمد لله الذي يصطفي من عباده من يشاء، ويهدي إلى الحسنى من يُريد، والصلاة والسلام على أبرِّ ولد، وأفضل والد، سيد المرسلين محمد ﷺ.

بمناسبة زفاف أخي يحي بحثت عن هدية أسجل بها حضوري وشعوري، وأرد بها جميلا سبقني به يوم تنازل ـ هو وإخوته الكرام ـ عن قسم من البنوة لوالده الدكتور محمد صالح ناصر... فلم أجد سوى التمثل بقول الشاعر الحكيم:

(1) فاكس من أستاذي الدكتور محمد صالح ناصر، أرسله إليّ من سلطنة عمان، بتاريخ 18 فيفري 1997م.

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليُسعد النطق إن لم تسعد الحال

فنطقي لن يكون إلاَّ عبارة أستخلصها من مسيرة أستاذي الدكتور محمد ناصر، عِبرا تحملها حياته الحافلة طالبا متعلما، وعِبرا تزخر بها تجربته أستاذا ومرشدا...

وقبل أن أبدأ في الموضوع، أود التنبيه إلى أنني اخترتُ عينات مما وقع في يدي من وثائق ومصادر، وهي التي حدَّدت مسار كلمتي هذه، دون اختيار لنموذج على حساب نموذج آخر[1]... ودون تفضيل لشيخ على شيخ، أو طالب على طالب آخر...

الشيخ أبو اليقظان هكذا عرفته:

هذا عنوان مقال كتبه الدكتور محمد ناصر، ونشره في مجلة النهضة بعمان، وفي مجلة الموافقات التي يصدرها المعهد العالي لأصول الدين بالجزائر ... وصف فيه مراحل تأثره بالشيخ أبو اليقظان، مرحلة مرحلة، وهي:

- **مرحلة الإعجاب والتهيب**: وفيها ملأ والدُ الدكتور (بابا صالح) قلبَ ولده حبًّا لأبي اليقظان، وغمرَ عقله

(1) ألِّفتْ هذه المداخلة قبل صدور ترجمة الدكتور ناصر: «ذكرياتي ومذكراتي»، وكتابه: «مشايخي كما عرفتهم».

إعجابا وتقديرا له؛ وكأنه بهذا يرشد كلَّ والدٍ إلى ربط بَنيه بالشخصيات البارزة، حتى لا يربطها الدهر بأبطال الرياضة، ومشاهير المغنين والمغنيات...

وعن هذا يقول الدكتور: «كان والدي يُحدِّثني عن مكانة الشيخ في النفوس عن علمه وتقواه ووطنيته حسبما يحتمل ذهني الصغير آنذاك، وكنت أراه عن كثب، وأتأمَّل شخصيته عندما يقيم والدي وليمةً يستضيف إليها مشايخ القرارة وأعيانها... كان والدي يحدثني عن الشيخ بإعجاب كبير وتقدير منقطع النظير».

● **مرحلة التلقي والتقرب**: وفي هذه المرحلة حفظ الدكتور القرآن الكريم، فأرسل الشيخُ رسالة تهنئة إلى والدِه (بابا صالح)، وكأنَّ الشيخ ينبه العظماء والعلماء إلى عدم إغفال مسيرة الشباب والمبتدئين، ولو برسالة تهنئةٍ، أو بكلمة طيبة، قد تكون الشعلة والسبب في إذكاء روح الطموح فيهم، وبعثِ الثقة في قرارة نفوسهم.

غير أن ما يطلب من الشاب في هذه المرحلة، هو ملازمةٌ من الأعيان والعلماء والمشايخ، فالدكتور كان يقول عن هذا: «كنتُ أنا وبعض زملائي بالمعهد نثقل على الشيخ بزياراتنا المتكررة له في بيته، منجذبين إليه بأحاديثه العذبة، كنا نزوره من حين إلى آخر متعطشين إلى علمه وتجاربه وسعة أفقه فيغمرنا بأحاديثه الشيقة...».

وصدق من أوصى ولده قائلا: «زاحم العلماء بركبتيك يا ولدي».

● **مرحلة المراسلة والتغرّب**: سافر الدكتور إلى مصر متعلِّما غير أنَّ العلاقة الحميمية بينه وبين شيخه لم تنقطع، بل وثَّقتها المراسلات والمكاتبات وفاءً من التلميذ لأستاذه، وحرصا من الأستاذ على تلميذه... وفي ذلك يقول: «كنت طوال فترة حياتي حريصا على مكاتبة الشيخ، وكان هو أحرص مني على متابعة أخباري وأخبار إخوتي بالبعثة، وكانت رسائله مليئة بالنصح والإرشاد والأخبار العامة والخاصة... وكانت تلك الرسائل نِعم الزاد في غربتنا، ننتظر وصولها بلهفة وشوق شديدين؛ وكنا نجتمع حولها في جلسة يطرزها الشاي الأخضر، وكنا نحتفل بها احتفالا».

● **مرحلة البحث والتدرُّب**: وقد شاء الله أن يجمع بين التلميذ وأستاذه لمدة خمس سنوات، بعد تخرجه في جامعة القاهرة، ويقترب منه في المكان: القرارة، وفي الموضوع ضمن رسالة الماجيستير: المقالة الصحفية.

يقول الباحث الدكتور ناصر: «وكانت هذه الفترة، التي دامت خمس سنوات من أهم فترات عمري، استفادةً من الشيخ لاستقراري القريب منه، ثم لاستعدادي الفكري للاستفادة بشكل أعمق من تجربة الشيخ».

ورغم كل هذه البنوة الصادقة من الدكتور لشيخه الفاضل، إلاَّ أن الإحساس بالتقصير نحوه ينتابه، ففي آخر المقال الذي نحن بصدده يقول الدكتور: «هذه بعض انطباعاتي عن هذا الرجل العظيم الذي أدين له بالأبوة والأستاذية، وأحسبني مقصِّرا في حقه، متجنِّيا عليه؛ لأن دراستي الوحيدة عنه تحت عنوان: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، لم تغط كل الجوانب التي كان ينبغي أن تغطيها، ولعلي قد استدركت بعض هذه الجوانب في هذا المقال، رحم الله الشيخ وقيّض الله من أبناء الجزائر من يحمل رسالة الأجداد من الأحفاد. والله ولي التوفيق».

● **وصية لقمان الحكيم**: وهنا نكتفي بما ذكره الدكتور محمد ناصر بوحجام في مقدمة دراسته التي كتب لها أن تصدر بمناسبة هذا العرس المبارك فهو يقول: «إن أستاذنا ـ أي الدكتور محمد صالح ناصر ـ كان عند حسن ظن آبائه ومشايخه، وكل من تفرس فيه خيراً وأسدى إليه نصحا، حين كان يدرُج في مدارج العلم كما فعل الشيخ حمو بن عمر لقمان (ت:1965) الذي أرسل إليه رسالة تهنئة بمناسبة استظهار القرآن الكريم سنة 1954، قال له فيها: «...أترى يا محمد إلى أي حدٍّ تحفُّك النعمة، فحافظ عليها بالشكر وبالحرص وبالقيام بالواجب، فإنَّ عجلة الدنيا تدور بسرعة؛ فعما قريب تصبح في صفوف

الرجال الأمامية، فإن تزودت بالسلاح الكافي من العلم والأخلاق، كنتَ جديرا بالسيادة، وإن أضعت العمر في اللعب خسرت مرتين: خسرت عمرك، وخسرت قيمتك في هذا المجتمع...

محمد اقرأ جوابي مراراً ثم احفظه كسورة، ثم افهمه، ثم اعمل به، ثم لا أحبُّ منك أن تقف عند حدود جوابي، بل أريد منك أفقًا متسعًا، ودائرة أوسع، حتى تسدي إلينا النصائح والإرشادات والدروس، فيثمر غرسنا ونجني منه ثمرة لذيذة...»[1].

ولا أملك تعليقا على هذه الوصايا القيمة إلا فهمها على ضوء قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:24-25][2]، فبمثل هذه الرسالة ـ أيها الأساتذة الكرام ـ تنشئون ذرية صالحة لا بالتنقيص والشتم والتشاؤم... وترديد مقولة القائل: «لم يترك الأول للآخر شيئا»، أو «فسد هذا الزمان ولا صلاح فيه»، أو «أغلقت أبواب الجنة على أهل هذا الزمان» ...

(1) الرسالة تقع في خمس صفحات مؤرخة هكذا: الجزائر يوم 13 فيفري 1954م

(2) في أول جمعة من رمضان 1415، 3 فيفري 1995م.

الدكتور شكري فيصل:

في يوم 1972/06/13م نال الدكتور محمد صالح ناصر شهادة الماجيستير في الآداب وعلوم اللغة العربية، غير أنه فاز بشهادة من مشرفه العلامة الدكتور شكري فيصل، أثقل في الميزان من هذه الرسالة.

ووددت لو أن الوقت طويل لقرأت تقرير المشرف كاملا، فجميعُه عبر وحكم، يكفي أن تتأملوا هذا المقطع منها، مع الإشارة إلى أنَّ هذا التقرير لما يطبع وإنما حظيت به من الدكتور لأصفقه لا غير، فاحتفظت لي منه بنسخة أرجع إليها من حين لآخر تلميذا ومتعلماً[1].

يقول الدكتور شكري فيصل: «...من الصدق، بدأ أول خيط في نسيج هذه الصلة التي سنسميها فيما بعد صلة بين الأستاذ المشرف والدارس الطالب، ومِن الصدق، بدأ رضاي عنه ورعايتي لخطواته الأولى.

كان هو شيء يشبه التطلع الحائر، والنظر القلق، فقد أنجز دراسته الثانوية في الجزائر في معهد الحياة بالقرارة، ومعهد الحياة بالقرارة ـ فيما عرفت ـ لا يعلِّم فحسب، وإنما يربي كذلك، وهو لا يربي متنكرا للأصالة

(1) نشر الدكتور ناصر – بعد ذلك – في مذكراته، تفاصيل العلاقة بينه وبين أستاذه ومشرفه الدكتور شكري فيصل.

وإنما ينطلق منها، ولا يتفرد باتجاه قديم أو معاصر، وإنما يجاوز بين العتاقة والمعاصرة ولذلك انتهى الدكتور محمد ناصر من دراسته الثانوية وهو محب للغة العربية وآدابها، محبٌّ قبل ذلك لكُتّابها وبعد ذلك لتراثها، يتمنى لو يكون له حظ من ازدهارها.

ومن الجزائر مضى محمد ناصر نحو المشرق، وقد سبقه إليها نفرٌ من مواطنيه وصحابته، وهل كان لنا نحن هذا الجيل إلاَّ القاهرة نتجه إليها، وكذلك وجد نفسه في أبهاء كلية الآداب من القاهرة أو جامعة فؤاد ـ كما كانت تسمَّى ـ ينتقل بين غرفات الدراسة وقاعة المكتبة يسمع ويسجل ويقرأ، حتى إذا أنهى إجازته «الليسانس» 1966م عاد يؤدي لجزائره ولمعهده، وعاد يؤدي قبل ذلك للعربية حقها عليه، فإذا هو يدرس عددا من السنين هناك.

وبدا لي في اللحظات الأولى التي لقيته فيها أنه كان يغلي، كما يغلي شابُّ هذا الجيل بكثير من التطلعات، وكان يطمح إلى كثير من الأماني... ولكنَّ تطلعاته وأمانيه لم تكن ذاتية فردية، ولا ضيقة خاصة ولم تكن أنانية، وإنما كانت هذه التطلعات التي يريد فيها من خلال ذاته أن يخدم دينه ووطنه، وعبر إغناء النفس وتنمية الثقافة وتأكيد الشخصية كان يريد أن تغنى ثقافة الجزائر وأن تتأصل شخصيته.

ومن هنا بدأ الخيط الثاني من نتاج هذه الصلة، الصدق أولا وإيثار الجانب العام على الخاص ثانيا.

فلمَّا مضيتُ يرافقني في البدايات الأولى من هذه الرحلة العلمية، عرفت عنه شيئا آخر. ذلك أن صدقه مع نفسه، والتزامه لجانب وطنه لم يكن في هذه الدائرة الضيقة، وما أكثر الذين يخنقون ذواتهم في الدائرة الضيقة، و إنما كان ينظر في ذلك إلى أنه الإنسان الصادق الملتزم، وإلى أن وطنه هذه الرقعة الغالية، ينظر إلى ذلك كله على أنه جزء من الوطن الكبير وهو وطن العربية، ومن ثقافة غنية هي ثقافة الإسلام، ومن حركة تاريخية عريقة تمضي نحو المستقبل، هي حركة هذه اللغة وهذه الثقافة في اتجاهها نحو الإسلام في صناعة الإنسان الفاضل.

وكذلك اتضحت هذه الركيزة الثالثة التي قامت عليها هذه الصلة صلة الإشراف، وبدأت منها ولادة الموضوع.

صدقه والتزامه وارتباطه بالمثل العربية الإسلامية حببت إلي مرافقته في الطريق العلمي، وقد وجدت ذلك بعد في عمله، فقد كان صدقه يحول بينه وبين أن يدعي ما لم يفعل، وكان صدقه كذلك يلزمه أن يفعل ما يفعل في صبر عجيب، وكان التزامه بوطنه يدفعه بأن يطوف أرض الوطن يفتش عن مجلة، على عدد من جريدة في هذه المدينة أو في تلك الولاية أو في ذلك البيت، لعله

يظفر بروح من روح وطنه الذي أراد الاستعمار أن يبدده، وكان ارتباطه بالمثل العربية الإسلامية يجعل علمه مبرأ من الغايات القريبة، لا يريد هذا العمل مسلما إلى مركز أو جاه.. ينفق عليه من ذات يده، على أنَّ ذات يده لم تسمح له بأن يكون هذا الإنفاق عريضا... ولكنه كان لا يتأخر عن إيثار عمله على خبزه، ونفقة موضوعه على نفقة عياله...

وكان ارتباطه بهذه المثل هو الذي يجعله ينصرف عن كل لذَّات الحياة، لا يطلب المقعد الوثير، ولا ينتظر أن تحمل إليه المصادر حملا، ولا يمنُّ على أحد في عمله... لم يكن يطمح أن يغادر مقامه في الصحراء، وعمله في التدريس، ولا أن يجعل هدفه أن يجد له مكانا في العاصمة، ومرتَّبا في الدولة، ومركزا في الجامعة، فإذا انقادت إليه هذه الأشياء بعد ذلك فهي من فضل الله، وثمرة من ثمرات الصفاء لم يعمل إليها دائما، تناهت إليه جزاء وشكورا.

إنَّ هذه الصفات الطيبات منحت الطالب محمد ناصر سلوكا علميًّا نقيًّا محبّبًا، وهو أول عُدة الذين يريدون أن ينهضوا لهذه الرحلة العلمية الواسعة... لقد أنبتت عنده روح الدارس، وخلق الباحث، وسلوك العالم، فإذا هو يأخذ طريقه إلى ذلك في تواضع بعيدا عن كلِّ ادعاء، وفي جهد بعيدا عن كل تململ، وفي مثابرة لا تكاد تعرف الملل، وفي إيمان بأن الدرجة العلمية ليست رغبة من غير

عمل، ولا هي عمل من غير نصيب... وأن ثمرة البحث العلمية ليست ثمرة جاهزة، وإنما هي نتيجة معاناة طويلة وآلام قاسية.

وترون أيها الأساتذة أني أؤكد على هذا السلوك في عمل الدارسين في الجامعة... ذلك أني أؤمن أنه ما لم يكن هناك ربط بين الأخلاق وبين العمل العلمي بالجامعة، هذا الربط بين العمل والمثل، وبين السيرة والهدف، فإنَّ جامعاتنا لا تحقق شيئا ذا بال... قد يتخرج فيها متخرجون، وقد تمنح درجات علمية، ولكنها لا تخلّف لا في حياة المجتمع ولا في حياة الناس شيئا ذا بال...

إنَّ الجامعة هي طريق إلى المثل العليا في الفكر والمجتمع والحياة، ومن أجل ذلك فإن الجامعيين لا يمكن أن يقودوا غيرهم على مثل هذه المثل إذا لم يؤمنوا بها هم أنفسهم» .

لا يحسن بعد هذا التقرير الصادق أن نضيف تعليقا، إلا أن يكون حديث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، فكأني بالدكتور محمد ناصر يستقي ويتمثّل معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين يسأل الرسول ﷺ فيقول: «يا رسول الله، أوصني؟ قال: **اتق الله حيثما كنت** (أو **أينما كنت**) قال زدني؟ قال: **أتبِع السيئة الحسنة تمحُها**، قال زدني؟ قال:

وخالِق الناس بخُلُق حسن»[1].

ثانيا: الأبوة الفياضة

كما كان الدكتور محمد ناصر ولدا صالحا وتلميذا وفيًّا، وطالبا مخلصا؛ كان ولا يزال والدا ناجحا، ومربيا مقتدرا، ومعلما رائداً...

ولعل المتتبع لإنتاجه الأدبي الغزير، يلحظ منذ أوَّل وهلة أنه خصَّ في بعضٍ منه أبناءه، ويستوي في ذلك الشعر والنثر.

فمجموع القصص المربي للأطفال كان تأليفها استجابة لرغبة أبنائه وأحفاده الصغار، وكان يلقيها عليهم تباعا بعد تأليفها، ويطلب منهم إبداء مشاعرهم وملاحظاتهم، باعتبار أنَّ الذين ستوجه إليهم لا يعدون هذا السن، فالفهم هو نفس الفهم، ودرجة التلقي هي نفس الدرجة.

وأما في مجال الشعر فنسجل قصيدتين موجهتين لأبنائه، الأولى عنوانها: «هذا الملك الذي يعذبني»، والثانية مهداة إلى يحي المحتفل بعرسه اليوم وعنوانها: «رسالة متأزمة إلى ولدي».

(1) رواه الإمام أحمد في مسند الأنصار، رقم 21047.

هذا الملك الذي يعذبني

لا يسع المقام لقراءة القصيدة بكاملها وإنما نكتفي بذكر السبب الذي جعل الدكتور ناصر ينظمها، فهو يقول: «قد لا يشعر المرء بقساوة الغربة إلا بعد أن يقع بين أنيابها، ولعل قساوتها تصبح أشد على من تعوّد الحياة الأسرية.

بعد خمسة عشر يوما من سفري إلى عمان اتصل بي أحد أبنائي، وفي عمره ثماني سنوات ليقول لي أنه مشتاق إليَّ، وعندما وعدته بالهدايا أجابني بعفوية وفطرة: أنا لست في حاجة إلى الهدايا، أنا في حاجة إليك أنت، من وحي هذا الواقع استوحيت هذه الأبيات:

ويجيء صوتك من بعيد في مطاويه
البـــراءة مـثـل نـفـسـك صـافـيـة[1]

وفي هذه القصيدة تبدو مظاهر الأبوة الصادقة في كامل قوامها، وأجمل مظاهرها، فالأبوة لا تغرق في متاع الدنيا ناسية حق الأولاد، ولا تغفل عن تربيتهم وإسداء النصح لهم، مهما قربوا أو بعدوا، ومهما صغر سنهم أو كبر... لأنها تؤمن إيمانا صادقا لا يخالجه شك بأنَّ الأبناء ودائع وضعها الله بيد الآباء، فإن شاؤوا أحسنوا وإن شاؤوا

(1) ألحان وأشجان، نشر جمعية التراث، 1995/ 1416، ص 29-30.

أساؤوا، وأن الله سيجزي المحسن على إحسانه جنة خالدا فيها، والمسيء على إساءته نارا خالدا فيها، وفي هذا يقول سيد المرسلين: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته**، قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ وأحسبه أنه قال: «**والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

رسالة متأزمة إلى ولدي

يتقلب العالم الإسلامي ـ في عصرنا هذا ـ بين محنٍ وإحنٍ تشيب الولدان، وتترك الحليم حيرانا، والمسلمون مع ذلك لا يحركون ساكنا، بل مع ذلك يخربون بيوتهم وبيوت الكافرين بأيديهم وأيدي الكافرين... ولا توجد أمارات تشير إلى اقتراب انفراج الأزمات، إلا أن يتغمدنا الله بألطافه..

وفي غمرة هذه الأزمات يعيش الشباب في حيرة عارمة وقلق متزايد... فإن هم وجدوا من يرشدهم إلى الصواب

(1) رواه البخاري في كتاب الاستفراض وأداء الديون، حديث رقم 2232، من حديث ابن عمر.

نجوا، وإن لم يجدوا هلكوا والعياذ بالله.

ففي اليوم الثامن والثلاثين من القصف العدواني على العراق، بعث الدكتور رسالة إلى يحي، وهي كما قال: «رسالة من جيل الكهول إلى جيل الشباب».

وفيها يقول:

ولدي، إذا أبصرت في عيني الدموع، فلا تسلني، إنني أخشى الجواب

واعذر أباك إذا رأيت تكسّرا في أحرفي، تُنبيك عن هول المصاب

ثم يقول:

فاربأ بنفسك أن تكون كجيلنا، نبني الكلام وغيرنا يبني العجاب

واحذر وجيلَك أن تقولوا مثلنا: كان الجدود، فكان ماض لا يهاب

وينهي القصيدة العصماء بقوله، وهو يتمثل معاني القرآن الكريم:

فخذ الكتاب بقوَّة، وخض الحياة مدجَّجا بالعلم، تمتلك السحاب[1].

(1) ألحان وأشجان، ص 15-16.

وها قد استجاب الولد البار يحيى للنداء، وواصل دراسته حتى حصل ـ منذ أيام ـ على شهادة تفتح له طرق الإبداع والإنتاج، التي هي أول خطوات التمدن والحضارة...

وصية والد إلى ولده العروس[1]:

ألَّف الدكتور ناصر، بمناسبة زفاف ابنه يحيى، رسالة طريفة، ارتأيت أن أنشرها في هذا الملحق كاملة، وهي عنوان أبوَّة حانية، تَعي معنى الميثاق الغليظ، وتنقله بحُرقة وحكمة للجيل اللاحق؛ أبوَّة لا تفوِّت الفرص والمناسبات للتذكير بالمعاني الكبرى، التي هي وقود الحياة، وسبب السعادة لما بعد الحياة؛ وهذا النص الكامل عبرة طيبة، وذكرٌ حسنٌ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حضرات السادة الأفاضل: مشايخا وأساتذة، آباء وأبناء، ذكورا وإناثا ... سلام الله على جمعكم المبارك، المستمد بركاته من طهارة نفوسكم، المستجلي رونقه من نضارة

(2) العروس (بالواو والعريس (بالياء): الرجل والمرأة ما داما في عُرسهما، أي في يوم زفافهما؛ يقال: جلس العروس إلى جنب عروسه؛ أو جلست العروس إلى جانب عروسها. والغالب في الاستعمال أنَّ العروس للأنثى، والعريس للذكر.

وجوهكم، المستلهم روحانيته من قدسية شعيرة الزواج، التي أوجبها الله، وسنها نبيه الكريم ﷺ.

فزاد الله في حياتكم بركة، وبيَّض وجوهكم يوم تقدِّمون صحائفَ أعمالكم، وثبَّت على طريقه خطاكم ـ خلفا عن سلف ـ إلى أن يجمعنا في رحمته على سُررٍ متقابلين، كما يجمعنا اليوم على فرشٍ إخوانا مستبشرين، وبعد،

فهذه الكلمات موجزة، رغبتُ في أن أشارككم بها في هذه المناسبة الكريمة، ردًّا لتحياتكم وتهانيكم، وقياما بواجب المسؤولية الأبوية الملقاة على عاتقنا وعاتقكم، فإن لاحظتم في كلمتي الاختصار والإيجاز، فذلك لأني أخاطب شبابا يعايش عصر السُّرعة، ويتكلَّم لغة الكومبيوتر، ثم لأني على يقين بأن أبنائي العرس[1] هم الآن بآمالهم وأحلامهم أشغل، فليس لديهم الاستعداد النفسي لسماع الخطبة المطوَّلة، ولو جاءت محبَّرة مجمَّلة.

واسمحوا لي حضرات السادة، ويا أبنائي العُرس، إن وجهت كلمتي بصيغة المفرد إلى الابن، ولستُ أقصد بذلك أن أخصَّه دون غيره من إخوته، أو أميزه عنهم. وإنما أريد أن يشعر وكأنه المعني بعظم المسؤولية، ثم لأني فضَّلت

(1) هو عرس جماعيٌّ، على عادة الأعراس في القرارة وفي وادي ميزاب، ولذا كان الخطاب للجمع.

أن يكون خطابي على شكل وصايا، وأنا ما حرصت على تقديمها الليلة علنا إلاَّ لرغبتي في أن تشمل أبنائي العُرس بخاصَّة وأبناء المسلمين بعامَّة، ولأني أعتقد صادقا أن مسؤوليتي من ابني أمام الله لرابطة البنوة، لا تقل عن مسؤوليتي من أبناء المسلمين لرابطة الأخوة، فرسول الله ﷺ يقول: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**».

ولدي:

ها أنذا أقدِّم الليلة[1] بين يديك وصاياي، التي حرصتُ أن تشمل دوائر حياتك الأساسية كلها، من دائرتك الخاصَّة المتعلقة بحياتك الروحية، إلى الدائرة العامَّة التي تشمل حياتك في أمَّتك الإسلامية، وبين هذه وتلك حياتُك الأسرية، فالبلدية، فالوطنية. وهي كما ترى دوائر لا تستغني بإحداها عن الأخرى، فلستَ إلى النصيحة فيما يختص بحياتك الزوجية أحوج منك إلى النصيحة فيما يتعلق بحياتك في محيط أمتك الإسلامية.

فإنَّ الذي خلق الخلق، ركَّب في طباعهم الحرص على أن يتعلقوا حبًّا بأعشاشهم حيث يسكنون، كما أثار في حناياهم حبَّ الانطلاق، والاطِّلاع، والسعي في فضائه

(1) تلقى الوصية على مسامع الحاضرين لعرس جماعي، وخلال حفل فني إسلامي تحييه مجموعة صوتية بالأناشيد الإسلامية والمدائح الدينية، عوض الحفلات الموسيقية والغنائية، المخالفة لتعاليم الشريعة الإسلامية الحنيفة.

الواسع حيث يسترزقون.

فبيتك، وأسرتك، وبلدتك، ووطنك، وأمتك، حلقات محكمة الاتصال، تتداخل لتتكامل، وتتفاعل لتتواصل، ولا يمكنك أن تضع الخطو ثابتا في إحداها، إن لم يكن بصرُك متعلقا بأفق الأخرى، وإلا عشت حياتك غير متوازنة، مهتزة غير آمنة.

وها أنذا، سأبدأ معك وصاياي، من محيطك الزوجي الخاص، حتى أصل بك إلى أفقك الإسلامي العام، في وصايا خمس:

- **الوصية الأولى: معاشرتك لزوجك**

ما من شك في أنك تعيش، أو ستعيش بحول الله وتوفيقه، هذه الأيام أحلى ساعات عمرك، وأجمل أيام حياتك، هذه اللحظات التي انتظرتها بلهفة، وسهرتَ لها بشوق، فليكن حرصُك على استمرار هنائها، ودوام نضارتها، مثل لهفتك لها، وتطلعك إليها. ولن يقطع ذلك عنك إلاَّ خفة أو طيش، أو سوء تصرف أو تدبير، فلتكن إذًا حكيمًا، موازنا بين عاطفتك المتأججة وعقلك الرصين، لا تضع أحدهما مكان الآخر، إذ لا خير في فرح تعقُبه حسرة، ولا بركة في عُقدةٍ نهايتها حلٌّ، فلا يكن حبك أسفا، وودك تلفا.

واعلم ولدي أنَّ الرباط الذي ستعقده الليلة بزوجك وشريكة حياتك، رباطٌ مقدس قدسية القرآن؛ لأن الله هو الذي فرضه، ومعظَّم عظمة سنة نبينا الكريم ﷺ؛ لأنه هو الذي أمرنا به وحثنا عليه. بل إنه ربط بين الانتساب إليه وبين أمته، بهذه الشعيرة حيث يقول: «**الزواج من سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»، وجعلها مناط افتخاره ومباهاته للأمم الأخرى ـ يوم تأتي كل نفس بما كسبت ـ قال: «**تناكحوا تناسلوا فإني مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة**».

مِن هنا ينبغي أن يكون فهمُك للزواج منطلقا من مفهوم القرآن له، كما جلاه لنا سبحانه وتعالى، في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم:21].

فعظِّم ولدي هذا الرباطَ على أنه آية من آيات الله، وتفانَ في الإخلاص له، تفانيك في الإخلاص لنفسك، لأنَّ الله إنما خلق زوجك من نفسك.

وأحِبَّه بعمق وصدق، حبَّ القلب والعقل معًا، لا حبَّ الغريزة واللذة المنتهية، بل حبَّ الإلف الذي تجد في أحضانه السكن، وفي حِماه الطمأنينة، فإنك بعد التعظيم، والتفاني، والحبِّ، يجعل الله بينكما المودة والرحمة؛ لأنه هو الذي ضمنهما، ولا دخل للعباد فيهما.

المودة والرحمة سرٌّ من أسرار الله، لا تخضع لمقاييس البشر، ولا لميولهم الآدمية.

ولتكن بعد ذلك وقبل ذلك ـ ولدي ـ ممن يتفكرون في عظيم خلق الله استخلاصا لعبرة، واستزادة لإيمان، واستنزالا للرضى واليقين.

● **الوصية الثانية: رابطتك الأسرية**

أي بني، قبل ثلاثين سنة كنتُ أجلس في مثل عرشك، وأحمل شبيبة مشاعرك، وأحلم بفتاة صارت اليوم أمَّك والساهرة على عُرسك، فلتكن رعايتك لها بقدر رعايتها لك، وليكن ودُّك وإحسانك إليها بقدر عطفها وحنانها عليك، واجتهد في رضاها أوَّلا، لأنك إلى دعائها الصالح أحوج، وإلى استشارتها في أمورك قبل غيرها أفقر؛ فإنك لن تجد على ظهر الأرض مخلوقا أرقَّ ولا أحنَّ ولا أخلص من الأم، التي ربط الله طاعته بطاعتها، وكرمها على لسان الرسول الكريم، الذي قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

واعلم أنَّ ما تقدمه لها من خير، إنما هو دَيْن تؤديه لا مزية تتفضل بها، واجعل نصب عينيك قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[الإسراء:24].

وأنك ـ ولدي ـ ستبني منذ الليلة إن شاء الله عشَّك الجديد، عشَّ الزوجية السعيد، وكنت من قبل لا تعرف

عشًّا غير عش والديك وإخوانك، وأهلك، وذويك، فلا يشغلنَّك ما أنت فيه من بناءٍ عن عشك الذي فيه درجتَ، وروضتك التي في حماها ترعرعتَ، فإنَّ لكلِّ عشٍّ دِفئا لا يوجد في غيره من الأعشاش، وإنَّ لكل روضة أريجا تتميز به عن غيرها من الرياض.

فلا يصرفنَّك عشُّك الجديد عن إخوتك الذين شاركتهم صدرَ أمك وحنانها، وقاسمتهم رعاية أبيك وتربيته.

وإياك أن تغتر باستقلالية تُنسيك إخوتك، أو تنصرف عنهم إلى محيطٍ يُبعدك عن أهلك وذويك، فأنت بدون إخوتك ضعيف ولو كبرتَ، وأنت خارج عِقدهم منبوذ ولو استغنيت.

واعمل يا هذا بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران:103].

ولا أشكُّ في أنَّ من أبلغِ الدروس التي تعلمتَها من فرحك هذا، ما رأيته في اتحاد إخوانك من حولك متضامنين، وتفانيهم في راحتك وخدمتك مسرورين، فهذه منَّة يطوِّقون بها عنقَك، لا أخالك إلا متذكرا إياها، مقدرا حق قدرها.

- **الوصية الثالثة: وفاؤك لبلدتك**

لو سألتك الآن لماذا تغمرك الفرحة العارمةُ، أنت

وإخوتك كلَّما عانق نظركم وجه القرارة الجميل، وأنتم تطلُّون عليها من شرفة «كدية الشوف» بعد سفر طويل أو قصير؟ ما سرُّ ذلك الابتهاج الحار الذي لا تجدون له تعبيرا إلاَّ صياحكم الطفولي البريء؟ لو سألتك الآن لأجبتني: ذلك تعبيرٌ عن مشاعرنا تجاه بلدنا وأهلنا، ومربع ذكرياتنا، ومرقد آبائنا وأجدادنا.

تُرى، هل تعلم أنَّ هذه المشاعر في حد ذاتها توجب عليك واجباتٍ، وتفرض عليك حقوقًا، من بعض ذلك حقُّ بلدتك عليك، أن تبقى وفيا لما نشّأتْك عليه من دين، وخلق، واستقامة؟

تذكَّر أبدا أنَّ أول ما يعانق نظرك من وجه القرارة الجميل مئذنة المسجد الشامخة، هذه التي تتربع على أشرف مكانٍ في البلد حسًّا ومعنًى؛ وتيقَّن أنَّ أجدادك ما بنوها في ذلك المكان المشرف العالي إلاَّ لحرصهم على أن تكون مئذنة المسجد أوَّل ما يعانق أبناءهم قادمين، وآخر ما يودِّع أنظارهم مسافرين، حتى تظل قلوبهم متعلقة أبدا ببيت الله.

فليكن، ولدي، أحبَّ مكان إليك في القرارة هو بيتُ الله، تؤدِّي فيه فرائضك، وتقضي بين جدرانه أوقات عبادتك، وتتخذ من عُمّارها رفقاءك وأصدقاءك، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[التوبة:18].

● **الوصية الرابعة: حبُّك لوطنك**

عندما يتفاخر الناس بجنسياتهم تتفاخر ولا شك بأنك جزائريٌّ، وأنت عندما تفعل ذلك ينبغي أن تدرك بوعي معنى «الجزائرية»: إنها الشعور القوي بالانتماء إلى حضارة إسلامية عريقة، قبل الشعور بالانتماء إلى رُقعة جغرافية أو مساحة أرضٍ.

ينبغي أن تتفانى في حبِّ هذه القطعة من الحضارة الإسلامية الماجدة التي تذكِّرك بأمجاد أجدادك المسلمين في تاهرت، وبجاية، وتلمسان، ووارجلان، ووادي ميزاب... وتحرِّك في أعماقك الافتخار بأولئك الرجال الذين ضربوا أكباد الإبل دُعاة، ليبلغوا رسالة الإسلام إلى أعماق الصحاري والأدغال الإفريقية، وقطعوا البحر الأبيض المتوسط غير مبالين بالأخطار المميتة، ليرفعوه منارات علمٍ وهداية، إلى البشرية جمعاء في رحاب الفردوس المفقود.

وإذا افتخرت بجزائريتك، فلا تنس أنَّ عدوك اللدود هو الاستعمارُ المسيحي اللاتيني، الذي ما فتئ يكيد ليحوِّل هذه الأرض الطاهرة إلى أرض صليبية؛ وأن

كيده لم يتوقف، وإنما هو يتخذ لكل حالة لبوسها، آونة يتنكر بلباس الثعلب الماكر، إشاعةً للتناحر بين الأهالي والمواطنين، ببث ضروب الفرقة والاختصام، وأحيانا يكشف عن أنيابه الدامية، علانيةً، فيُغِير على المقومات والمقدسات، وينهب الخيرات والثروات.

وحذار، ولدي، أن تتأثر بالدعايات الإعلامية الغربية الحاقدة، أو الشرقية الحاسدة، اسمعها بأذنك، وغربلها بوعيك وعقلك، واعرض كلَّ ما يقال لك على كتابِ الله، فما وافقه خذ به، وما عارضه اضرب به عرض الحائط غير مبال، ولا تركن إلى دعاوي الجاهلية مهما يكن مصدرها: قومية، أو مذهبية، أو طائفية، أو عشائرية.

فإن من وراء كل ذلك عدوٌّ لدودٌ، ماكرٌ حقودٌ، قال الله فيه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:120].

- **الوصية الخامسة: تمسكك بأمتك الإسلامية**

ولدي العزيز، إنَّ النعم التي أنعمها الله علينا، لا تُعدُّ ولا تحصى، ولكنَّ أجلَّها وأعظمَها وأبقاها، هي نعمة الدين الإسلامي، ونحن لهذه النعمة التي أضفاها الله علينا، ندعوه تعالى كلما قرأنا فاتحة الكتاب، أن يثبتنا عليها، شاكرين فضله أنه لم يجعلنا من اليهود المغضوب عليهم، ولا النصارى الضالين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:6-7].

فأدِّ، ولدي، لهذه النعمة شكرَها، بالطاعة والاستقامة والاستسلام، لقضاء الله وقدره، شاكرا لأنعمه في السراء والضراء، إن أنعم عليك شاكرا ليزيدك، وإن ابتلاك فاصبر ليثيبك، وليكن اعتزازك الأول والأخير هذا الدين، مرددا قول الشاعر:

أبـي الإســـلام، لا أب لـي سـواه
إذا افـتـخـروا بـقـيـس أو تـمـيـم

فنحن، ولدي، في وقت تعالت فيه الدعوات الجاهلية، عرقية، وجنسية، وطائفية... فاجعل مخلِّصك من كل ذلك تسمية أبينا إبراهيم عليه السلام لك، الذي سمانا المسلمين، ولا تبدل بصبغة الله صبغة البشر، ونحن - ولدي - في ظروف عصيبة، اختلفت فيها السبل وتداخلت، فعليك بصراط الله المستقيم، وقد تعالت فيها الأصوات وتباينت، فلا تلقِ سمعك إلاَّ لصوت القرآن، ولا يتكلمن لسانك في إخوانك المسلمين إلا بما يسرُّك أن تسجله عنك الملائكة، وتلقى به الله وهو عنك إن شاء الله راض، وليكن دعاؤك كل صباح : «آمنت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلة، وبسيدنا محمد نبيا ورسولا».

وستـرى توفيـق الله في خطـاك، ورعـايته في مبدئك ومنتهاك.

ولدي العزيز، هذه وصاياي إليك، وإلى إخوانك من كلِّ أبناء المسلمين، نحتّها من وجداني، وكتبتها بعقلي وقلبي، فانقشها في قلبك، وأبرزها عملا بجوارحك، واحملها أمانة عني إلى أبنائك وأحفادك.

فإن وعيت الوصايا، وعملت بها، وأديت أمانتها، فدعواتي ترعاك في حياتك، وترجو لك السعادة بحول الله في آخرتك.

والسلام عليك، وعلى أبناء الإسلام جميعا.

أبوك الداعي لك بالخير: م. ص. ن.

التبني العلمي:

حظيت ـ بلطف من الله ـ بمعاملة خاصة وإحسان منقطع النظير من قبل أستاذي الدكتور محمد ناصر، فتنازل لي أبناؤه البررة بجزء من أبوتهم، حتى كان الدكتور يقول لي دوما: «أعتبرك ابنا من أبنائي».

وإني أشيد ـ حامدا الله ـ بوالدي العزيز موسى الذي تنازل للدكتور بقسط من بنوَّته، حبًّا لي، وحرصا على مستقبلي، فحفظه الله ورعاه رعاية دائمة.

ولن أطيل في هذا العرض السريع، ولكني أود أن أقرأ على الإخوة الكرام شيئا من رسائل الدكتور إلي، فكأن التاريخ يعيد نفسه، وكأن رسائل الشيخ أبي اليقظان، ورسائل لقمان الحكيم، ورسائل شكري فيصل، زُرعت بذورا في قلب الدكتور، فأنبتت بعد حين نباتا يانعا، وأثمرت ثماراً طيبة؛ فأراد الدكتور أن يطعم منها شبابا هم في أشد الحاجة إلى إسداء النصح.

ولعلي أكتفي برسالة واحدة أعتز بها، وهي نموذج لبعض الرسائل الأخرى أرسلها إلي الدكتور عبر الفاكس، وأرى من الخطإ حصرها في شخص ما، ومن الجناية حرمان الناس والشباب منها؛ خاصة بما تحمله من معان غالية، وحكم عظيمة لا غنى لأحد عنها.

ففي هذه الرسالة التي اخترتها يقول: «أخي الفاضل الأستاذ محمد [والله يعلم أنني لا أزال تلميذا ولم أبلغ بعد درجة الأستاذ] سلامٌ عليك وعلى كلِّ من يحوطك بعطفه ورعايته، وكل من يؤازرك بساعده وعضده، وكل من يرعاك بدعواته الخالصة... وصلتني رسالتك فسُررت بها أيما سرور لاسيما أنها تحمل إلي عطر الوطن الحبيب...[1]، فأنعشت نفسي وردَّت الأمل إلى أحشائي،

(1) [غير مقروءة].

ودعوت من الأعماق أن يردَّ على الجزائر يوسفها، ويعجل بقميصه الذي يردُّ البصر إلى أبيه، وما ذلك على الله بعزيز.

تنسمت من كلماتك بعضَ التعب والإرهاق، وكدتُ أشتم رائحةً أكرهها وهي اليأس أو بالأحرى القلق؛ ولكني سرعان ما عدت إلى نفسي، فرأيت ذلك أمرا طبيعيا لمن هم في سنك حيوية ونشاطا وتطلعا وطموحا، لأني تذكرتُ هواجسي عندما كنت في مثل سنِّك، ولعلك تجد بعض آثار ذلك في الدار، حيث شهِدت هذه المرحلة من عمري، فلا خوف إذن مادام الإيمان بالله يملأ قلبك، والرؤية الواضحة تنير دربك، والنشاط الدؤوب يصحبك آناء الليل وأطراف النهار، ولقد فهمت من خلال الكلمات أنَّ ذلك راجع إلى الضائقة المالية، فحمدتُ الله لأن المال زائل، بل هو عارضٌ، ولا أحسب شخصا ما يستطيع التخلي عن التفكير في هذا الهاجس، والعجيب في الأمر أنه يستوي في ذلك الغني والفقير، من له قوت يومه فقط، ومن يعجز عن ضبط حساباته ورصد أملاكه، وحمدت الله لأنَّ هذا الهاجس دليل حيوية وطموحٍ، وبورك في الشباب الطامحين، لا الطامعين؛ فأنت محقِّقٌ بحول الله آمالك ما دام الإيمان بالله يتردد بين أنفاسك، ويصحب خطواتك، واعلم أولا وآخرا أنَّ القناعة كنز لا يفنى، ولأجل ذلك ذهب جمهور المفسرين إلى تفسير قوله تعالى على لسان

سليمان «**ربِّ هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي**» إلى أنه القناعة.

وكل ما أوصيك به أن لا تبالغ في إرهاق نفسك، لأنها مطيتُك، ومَن أرهق المطية لم يصل إلى الغاية، ولنفسك عليك حقٌّ، فالسرُّ كل السرِّ في تنظيم الوقت، وتقديم الأولويات، ومد الرِّجل قدر الكساء، والنظر موضع القدم، مع احتضان الأفق في آن واحد...

واعلم أن لدعاء والديك ـ ولاسيما أمك ـ سرٌّ إلهي، سوف تبدو آثاره في مستقبل حياتك بإذن الله، وما زال دعاء والدتي يرنُّ في أنحاء نفسي، عندما كانت تطمئنني إذا ادلهمت الخطوب، وكثرت المطالب المادية، تقول لي:

سوف يفتح الله أمامك كلَّ باب، وسوف يجعل الله من بعد عسر يسراً، فلا تقلق، واتخذ من الصبر والعمل سلاحاً ومن الرضا والتوكل حصنا، ومن الإيمان والعلم غدوّاً ورواحاً، ها أنذا أفاجأ بنهاية الورقة ولم أقل شيئا عن أحوالي؛ لكن المهم عندي هو أحوالك، سلمك الله وأخذ بيدك ووفقك...

فاكس مؤرخ بـ29/10/1995. من عمان إلى القرارة.

وبهذه المراسلة تختم المداخلة: «**الدكتور محمد صالح ناصر: البنوة البارة، والأبوة الفياضة..**»، وقد ألقيت

بمناسبة عرس ابنه يحيى، يوم الأحد: الأحد 7 ربيع الأول 1418هـ/ 13 جويلية 1997م.

محمد موسى باباعمي

الأحد 7 ربيع الأول 1418هـ/

13 جويلية 1997م

الزمن في أدبيات محمد علي دبوز (المراسلة نموذجا)[1]

المراسلة فنٌّ قديمٌ قِدم العلاقات البشرية؛ وبالتالي فهي تتكثف عددا، وتسمو مستوًى؛ كلَّما توطَّدت العلاقات وخلُصت النيات؛ وتقلُّ وتفتر إذا اختفى الحبُّ والوفاء من القلوب.

ولقد سبق لي بحمد الله ـ وبحكم مسؤوليتي في أمانة جمعية التراث، ثم بفضل علاقاتي مع أساتذة كرام ـ سبق لي أن اطلعت على المئات، بل الآلاف من الرسائل، لعل أبرزها:

1. رسائل الشيخ إبراهيم بيوض.
2. رسائل الشيخ إبراهيم اطفيش، أبي إسحاق.
3. رسائل الشيخ شريفي سعيد، الشيخ عدون.
4. رسائل الشيخ عبد الله كنطابلي.
5. رسائل الشيخ حمو فخار.

(1) **مجلة الحياة**، معهد الحياة، القرارة؛ عدد2، رمضان 1419هـ/جانفي 1999م؛ ص194.

ومن حسن حظي أنني نشرت مقالا في مجلة الموافقات[1] بعنوان: «المراسلة عند الشيخ أبي اليقظان»، وكنت آمل أن أشارك في هذا الملتقى المبارك[2] بمداخلة حول المراسلة عند الشيخ محمد علي دبوز؛ غير أن قلة المادة العلمية المتوفرة بين يديَّ، وقصرَ الوقت، أرغمني على اختيار موضوع دقيق ومركَّز، هو أقرب إلى تخصُّصي، ذلكم هو: موضوع الزمن في أدبيات محمد علي[3].

ولقد وضعت أمامي - أول الأمر - العديد من المراسلات والمقالات، وقسمًا من المذكرات، وحاولت أن أستخرج من ثناياها الثواني واللحظات، والساعات والأيام، والشهور والسنين، والعقود والقرون... فلم أتمكن، لأني صُدمت بغزارة هذه المادة في أدبيات الشيخ، وتيقنتُ أنها تصلح بحثا معمَّقا، ودراسة علمية وأدبية متخصصة. فآثرت في هذه المعالجة أن أعرض نموذجا لرسالة تحوي اثنتي عشرة صفحة، هي من رسائل «إخوان الصفا»، وهي مقطوعة أدبية قلَّ لها نظيرٌ، تصل العبارةَ الرشيقة بالفكرة

(1) **مجلة الموافقات**، يصدرها المعهد العالي لأصول الدين، الجزائر العاصمة. عدد5، ص510-518.

(2) ألقيت المداخلة في ملتقى الشيخ محمد علي دبوز ببريان، بمناسبة تدشين مكتبته، بريان.

(3) نشرت بعد ذلك بحثا بعنوان «**فن المراسلة عند الشيخ الأديب حمو فخار**» **مجلة الحياة**؛ عدد10، رمضان 1427هـ/أكتوبر 2006م؛ ص18.

العميقةِ، واللفظَ الرقيق بالمعنى الدقيق. وعلى هذا يكون مخطط المداخلة على النحو الآتي:

- أولا ـ القاموس الزمني في المراسلة.
- ثانيا ـ نماذج من البلاغة في تناول مادة الزمن.
- ثالثا ـ الأزمنة الثلاثة في الرسالة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.
- رابعا ـ سهمُ الزمن.
- خامسا ـ خلود المعاني.

أولا ـ القاموس الزمني في المراسلة:

كلُّ كلمةٍ، وكلُّ جملة في اللغة العربية تحمل دلالةً زمنية، إمَّا قريبة وإمَّا بعيدة. فالقريبة مثل الأفعال التي تتقلب وتتحول بالضرورة بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ وأمَّا البعيدة فتبرز في الأسماء والحروف التي لا تحمل في طياتها دلالة زمنية، إلاَّ أن تكون مما وضِع للزمن خصيصا، مثل: الوقت، والزمن، واليوم، وثم، وفاء التعقيب... إلخ[1].

(1) باباعمي محمد: **مفهوم الزمن في القرآن الكريم**؛ بحث لنيل شهادة الماجستير بالمعهد العالي لأصول الدين، الجزائر العاصمة، 1417هـ/ 1997م. ص5. وانظر- ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط:1371هـ/1952م. =

وأمَّا جملة الأسماء الدالة دلالة مباشرة على الزمن في مراسلة الشيخ محمد علي دبوز فهي حسب ترتيب ورودها: اليوم والأيام واليومان، والزمان، والفجر، والماضي، والآن، والليل، والهجيرة والهواجر، وبعدُ، والإشراق، والأسبوع، والشهر والشهور، والنهار، والأبد، والدهر.

ومن بين الأفعال المباشرة التي استعملها: أصبح وصار.

ولعل أهم الملاحظات التي نسجلها، من خلال هذا القاموس:

كثرة المادة الزمنية، بحيث لا تعدِمها صفحة من صفحات الرسالة.

ما أثبتنا من الألفاظ يقتصر على الألفاظ المباشرة، أمَّا الألفاظ غير المباشرة فلا يحصرها عد.

ترتبط بعض الألفاظ ـ في هذه الرسالة ـ بمعان ملازمة لها، ملازَمة الظل لأصله.

فلفظ «الزمان» ـ مثلا ـ يرتبط بسهام البعد، وحدَّة الوحدة، وهو كذلك «زمان لا طعم فيه»، وبها يكون أداة للتعبير عن القلق والاضطراب.

ولفظ «الزمان» لم يرد في القرآن الكريم، وورد فيما

= ج2/ص33-34.

أحصيت من حديث النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من سبعين مرة في الكتب التسعة، ارتبط في غالبها بالفتن والشرور. ومن ذلك قوله عليه السلام: «والذي نفسي بيده، ليأتين على الناس زمانٌ لا يدري القاتل في أي شيء قَتل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتل»[1].

وأمَّا «الهجيرة والهواجر» فهي رغم تسعُّر نارها ونورها، تعبِّر عن بداية الانفراج، وهي المحك الذي يبلو القلوب لينقي الذهب الإبريز من الحجر الصلد. وفي هذا يقول أديبنا: «واعجبا بهجيرةٍ تسعرت على ثمرة الصداقة، فتم نضوجها وأينعت».

وفي عبارة أبلغ يقول عن الهواجر: «إنَّ صداقتنا.. اخضرَّت أغصانها، والتفَّت في هواجر الزمان، وقِرَّة الدهر؛ فلن يزعزعها شيء، ولن تستطيع أيُّ قوة أن تنال منها، أو تنقِص من روائها وجمالها».

و«للفجر» في القرآن الكريم مكانةٌ خاصة، إذ ورد فيه ستَّ مرات، وسميت به سورة جليلة، وأقسم الله تعالى به في مقدمة السورة: «والفجر وليال عشر». وقد جاء اللفظ

(1) الحديث رواه مسلم، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم 5177، بسند: «حدثنا ابن أبي عمر المكي، حدثنا مروان، عن يزيد وابن كيسان، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال النبي..» وانظر- موسوعة الحديث، الإصدار الخامس، مادة زمان.

معرفا في كلِّ الآيات، وارتبط في جميعها بأحكام شرعية، تشريفا لهذا الزمن، واعتبارا لقدر ما ينجز فيه من أعمال وطاعات وعبادات[1].

وأمَّا العرب فتوصي من «ألانت له الدنيا أعطافَها، ومهَّدت له أكنافها، وأدرّت عليه النعمُ أخلافَها، أن يغتنم صَبوحه قبل الشروق، ويواصل قائلته بالغَبوق»[2].

وينشد في ذلك شيطانُهم:

هو الفجر قابلنا بابتسام
ليصرف عنا عبوس الظلام
ولاح فحلَّل كأس الشمول
صرفا، وحرَّم كأس المنام
ظللنا على شم ورد الخدود
ومسك النحور ونقل اللثام
نعين الصباح على كسفه
قناع الظلام بضوء المدام[3]

وأمَّا الأديب محمد علي فغايته من رسالته ـ التي بين أيدينا ـ أن يمسح بيده على قلب حبيبه؛ ليطفئ من ضِرامه،

(1) باباعمي: **مفهوم الزمن**؛ ص99.

(2) ابن منظور: كتاب **نثار الأزهار في الليل والنهار**؛ دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط. 1403هـ/1983م، ص45.

(3) الأبيات للشاعر أبي بكر الخالدي، المصدر السابق. ص47.

ويريد أن يطلع ـ هو لا غيره ـ فجرَ البهجة والانشراح على هذا القلب.

وإمعانا منه في ربط الفجر بالإشراقة والتفاؤل، يصف أرواح الأصدقاء بأنها «فاضت على المجلس، فصيرت أرضه كرقعة الفجر في الإشراق، وجوَّه كأنفاس الحور في الرقة والصفاء».

هذه أمثلة في ارتباط بعض الألفاظ الزمنية بمعاني دقيقة في رسالة الأديب محمد علي؛ أما عن بلاغته في عرض مادة الزمن، فهي أبرز سمة من سمات هذا النص الأدبي؛ وسنعرض أنموذجين للتمثيل لا للحصر:

ثانيا ـ نماذج من البلاغة في تناول مادة الزمن:

- **النموذج الأول: المقابلة:**

عرَّف أصحاب البلاغة المقابلة بأنها إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، على وجه الموافقة أو المخالفة[1].

وفي رسالتنا عبارةٌ تحمل هذا النوع من البديع، وذلك قوله «إنه لم يعُد سميري في الليل إلاَّ الكتاب والقلم، وجليسي في النهار إلاَّ الأستاذ في الدرس، والكتاب الذي

(1) عتيق عبد العزيز: **علم البديع**، سلسلة في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط. 1405هـ/1985م. ص85.

أرى فيه قرة العين ومتعة الفؤاد».

ففي هذا النص مقابلةٌ بين ضدين لفظاهما من مادة الزمن: الليل والنهار؛ وضدين معنًى هما: مسامرة الكتاب والقلم، والجلوس للأستاذ في الدرس؛ ففي الأوَّل هدوء وسكون، وفي الثاني حيوية وحركة.

بل وحتى الكتاب الذي كان في الليل هادئا عمد إليه فصيره في الصباح «قرة للعين ومتعة للفؤاد»؛ وبذلك نفخ فيه روح الإحساس والحياة، وقرَّبه على الأموات والأحياء على السواء: «وكلُّ شيء غير الكتاب لأراه سمجا باردا».

- **النموذج الثاني: التصوير الفني**

لم تكن المفردات ولا التراكيب القرآنية وحدها شاغلة لسيد قطب بموسيقاها وتناسقها وترابطها «وإنما كان نظره مركزا على الأداة المفضلة في كتاب الله، ولقد وجدها في التصوير الفني، فألَّف كتابه: التصوير الفني في القرآن الكريم»[1].

ولا شك أنَّ محمد علي قد اطّلع هذا على هذا الكتاب، في جملة ما طالع من مصادر البلاغة؛ بل ولعل الشيخ يعدُّ مِن أبرز أدبائنا المعاصرين توظيفا للتصوير

(1) صبحي الصالح: **مباحث في علوم القرآن**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط.3، 1964م. ص319.

الفني كأداة للتعبير؛ ففي الرسالة التي بين أيدينا نماذج لهذا التوظيف، عرض بها مادة الزمن عرضًا بليغا مبدِعا، واستعمل فيها «التخييل الحسي والتجسيم» وسيلةً لتقريب المعاني الخفية وإبرازها.

ومن هذه النماذج نعرض مثالين:

المثال الأول: تلك الصورة من الصراع الحثيث بين قسوة ظروف العيش، والقلب الذي لا تحطِّمه العواصف مهما اشتدَّت، مادام موصولَ السبب بقلب الحبيب، وفي هذا يقول: «أتذكر يا صديقي، أيام كانت الدنيا حولنا عابسة متجهمة، تلتهب نيران بروقها، وتتجاوب قذائف صواعقها، وتئزُّ في فضائها عواصف المكر والبغضاء؛ ونحن في ابتسام وطربٍ، لا نشعر بما يثور حولَنا من سعير، لأنك انتقلت إلي وانتقلت إليك؟!».

ثم يواصل: «إنَّ صداقتنا قد نشأت في أيام سودٍ، ونبتت بين الأمواج والأعاصير، واخضرت أغصانُها والتفت في هواجر الزمان، وقِرة الدهر، فلن يزعزعها شيء، ولن تستطيع أيُّ قوة أن تنال منها، أو تنقص من روائها وجمالها».

فلولا ألفاظٌ مثل: المكر، والبغضاء، والابتسام، والطرب، والانتقال بين الأحبة، والصداقة... لما كانت

هذه الصورة إلاَّ صورة حية لمشهدين في الطبيعة: أمَّا المشهد الأول فخارجي قاسٍ، يميزه العبوس، والتهجم، والتهاب النيران، والقذائف، والصواعق، والعواصف، وثوران السعير والأمواج والأعاصير، وهواجر الزمان ... بل وقوى الطبيعة كلِّها.

وأمَّا المشهد الثاني فداخلي ثابت، يتحدَّى بصموده كلَّ أسباب الانهيار والاحتراق، وهو يتمثل في الإنبات، واخضرار الأغصان والتفافِها، ولذلك «لن تستطيع أيُّ قوة أن تنال منها، وتنقص من رُوائها وجمالها».

المثال الثاني: يرتقي فيه الأديب مراقي التعبير الفني، فيصف يوم الهجر، وأيام التغاضب والكآبة، التي لا يعدمها إنسان في حياته، ما دام الفراق يفسد على اللقاء بهاءَه:

لـم يجتمع جمع لغيرِ بَيْنِ
لفُرقة كلُّ اجتماع اثنين[1]

ويسعى محمد علي من خلال هذا الوصف إلى «التجسيم والتجسيد» سعيا واضحا ومقصودا، فيقول: «إنَّ يوم الهجر ـ يا صديقي ـ هو يومٌ تسافر فيه الروح إلى وطنها؛ أتذكر يوم تغاضبنا، ولبثنا يومين في زمان لا طعم فيه،

(1) البيت لابن دريد من قصيدته المثلثة. وانظر ديوان ابن دريد، دراسة وتحقيق عمر بن سالم ، الدار التونسية للنشر، تونس ط:1973م. ص26.

تعلونا الكآبة، ويلابِسنا السَّموم، وتنعقد في أفقنا حيرة الغريب الذي فارَق وطنه؛ فلمَّا انهزمت شياطين الحنق من قلوبنا، وزفت الملائكة قلبي إلى قلبك، وأسبلت عليهما حريرَ الرضى، وشعرنا بعرائس العواطف الجميلة تنبعث زغاريدها في قلوبنا، فرحًا بالقلب الذي آب من سفره؟!».

فهل نحن حيال هذا المشهد إلاَّ في عرس تزف فيه القلوب إلى القلوب، وتسبل بالحرير؛ وزغاريدُ العرائس تنبعث فرحا...؟!

ومما زاد الجو جمالا وإبداعا، ذلكم التعليق الطريف الذي وضعه أديبنا على الهامش، عند قوله: «وزَفَّت الملائكة قلبي إلى قلبك»، فقال مازحًا: «كان قلبي هو العروس، قبَّح الله السهو».

ثالثا ـ الأزمنة الثلاثة في الرسالة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

- **الماضي:**

من الناس من لا يعرفون من الزمن إلاَّ الأمس «فهم يعيشون في الماضي وحدَه، لا يشعرون بغيره، ولا يهتمون بسواه من يوم مشهود، وغدٍ منشود»[1].

(1) القرضاوي يوسف: **الوقت في حياة المسلم**، الدار المتحدة - مؤسسة =

والصواب، لو تأملنا، «أنَّ الماضي ضرورة لصنع الحضارة، كما أنَّ الأساس ضرورة لبناء العمارة؛ ولكن الركون إلى الماضي والتمسُّح بأطلاله، تماما كمثل بِناء الأسسِ والاقتصار عليها؛ فكما أن هذا لا يعلي العمارات، فإنَّ ذاك لا يشيد الحضارات»[1]

والأديب محمد علي وظف في رسالته الخيال منطادًا يرجع به إلى الماضي، بجميع ذكرياته، دون حاجة إلى آلة السفر في الزمن التي اقترحها «ويلز» في روايته الشهيرة[2] واستعملها الروائيون والمخرجون في الأفلام الخيالية، بل نجده ببساطة متناهية يأمر حبيبه بقوله:

«افتح عينيك يا صديقي، وانظر نفسك مع أحبابك في دهليزي، أو في بستاننا، أو في مقصورة سعيد، عليها صلوات الحبِّ، أو في سَطح أحمد، أو في تلك الدار التي صفَّقت الأوراقُ حواليها، وتعانقت الأفنان، وأديرَ علينا في سطحها صوتُ شافية، وحسيبة، والويزة، وجورنو»؟.

ولا يقتصر أديبنا على الخيال، بل يستعد ـ من خلال

= الرسالة، سورية، ط.6: 1413هـ/1992م. ص34.

(2) باباعمي: **مفهوم الزمن**. ص160.

(3) هـ.ج. ويلز: **آلة الزمن**؛ نشر الأهلية، الأردن؛ 2005. وانظر -زريق قسنطين: **نحن والمستقبل**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ،ط.1، 1977م. ص76 – 82.

رسالته هذه ـ للسفر بجسده وعقله إلى الماضي، ليتخذه منطلقا في الحاضر، وحافزا للمستقبل، فيقول: «أرجعُ إلى الماضي فأنقلُ منه الأشباح الضاحكة لمحمد علي، فأحلِّي بها هذا الكتاب، الذي أرجو أن يكون صفحة لذلك الصدر الذي رنت فيه ضحكات القلب في الأيام الخوالي، فيفيضُ عليك إشراقه، وتنبثق منه شموس العواطف الزاهية، فتزين دنياك، وتنير ظلماتك».

- **الحاضر:**

إذا كان الشاعر الفيلسوف عمر الخيام يقرِّر بوجوديةٍ مفرطة حقيقةَ الحاضر بقوله:

غـدًا بـظَـهـر الـغـيـب والـيـوم لي
فـكـم يـخـيـب الـظـن بـالـمـقـبـل

وإذا أنشد الشاعر:

مـا مـضـى فـات والـمـؤمـل غـيـب
ولـك الـسـاعـة الـتـي أنـت فـيـهـا [1]

فإنَّ فيلسوف الإسلام أبا حامد الغزالي، يبين في نص بديع فلسفةَ التعامل مع الحاضر في الفكر الإسلامي، فيقول:

(1) البيت لإبراهيم بن يحيى الغزي. وانظر- دندشي حسن نمر: **معجم الأبيات الشهيرة**، جروس برس، بيروت، لبنان، د.ت، قافية الهاء، ص250.

«إنَّ الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد، كيفما انقضت: في مشقة أو رفاهية؛ وساعة مستقبلة لم تأت بعد، لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها؛ وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه، ويراقب فيها ربه، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسَّر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى (...) بل يكون ابنَ وقته، كأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخرُ أنفاسه وهو لا يدري»[1].

ووفق هذا التصور السامي، يعرضُ محمد علي صورة حاضره الموحش على حبيبه النائي، فيُخفي وراء الوحشة أملا وغاياتٍ عراض، ويقول: «أمَّا الآن، فمحمد علي قد تجهمت أطيافه، وسفعتها نارُ الشوق والحنين: الشوق إلى غايته العلمية، والشوق إلى صديقه النائي، والشوق إلى وطنه وحِبِّه».

ولأجل الغاية التي يرنو إليها يسخر من كلِّ العقبات، ويكسر كلَّ الأغلال؛ لينتصر على ثقل الحاضر، بالارتكاز على أرض ماضيه، والتشوف إلى سماء مستقبله، فيقول: «إنَّ الغاية التي تعاهدنا على بلوغها في الماضي يجب أن نصلها في المستقبل، ويجب أن نضحي فيها بكل لذة

(1) الغزالي، أبو حامد محمد ابن أحمد: **إحياء علوم الدين**، تخريج الحافظ العراقي، دار الثقافة، الجزائر، ط.1، 1411هـ/1991، ج6/ص16-17.

وجمال في الحاضر».

ولله در محمد علي إذ يقول: «يا صديقي، إني أصبحت في دنيا باهتة، ليس لها رُواء، وأضحيت في أيام باردة، وصرت أرى العالم كلَّه كعجوز شوهاء في ثياب الحِداد، ليس فيه من جمال إلاَّ شيء واحد».

ولسائلٍ أن يستعجل المشهد فيسأل: «تُرى ما هذا الشيء الجميل وسط هذا المنظر القبيح؟!».

فيُجيبه الأديب بقناعة وصفاء: «هو وحده المُشرِق الزاهي، هو وحده الجميل الذي أظل أقطار قلبي وتصبَّاني، وامتلك عقلي فصار لا يفكر إلاَّ فيه، ولا يجول إلاَّ في رحابه، ولا يستعذب الضنى وتجرع الزؤام إلاَّ في سبيله، هذا الحبيب المقدس يا صديقي هو ...هو العلم».

- **المستقبل:**

لو رسمنا صورة للماضي والحاضر في رسالة محمد علي لكانت عبارةً عن نهرين عميقين، يصُبان في محيط لا حد له: هو المستقبل بنوعيه: الدنيوي المتناهي، والأخروي اللامتناهي.

فأديبنا يصل أسباب حاضره بسماء مستقبله، ويقول باعتزاز: «أنا والله لا أخاف على هذا الحبِّ أن يندثر، ولا على حصونه الشاهقة أن تنال منها الأيام».

ويسمح لنفسه في تفاؤلٍ جليٍّ أن يجعل مستقبل حبيبه أكثر إشراقا وبهاء: «حبيبَ القلب .. أريد أن أمسح على قلبك بيد الحب فأطفئه، وأطلِع فيك فجر البهجة والانشراح، الذي انتشرت أضواؤه في زمان لا زلنا نراه بين أيامنا مشرقا ضاحكا، كالبدر بين الظلمات».

وبنفس الشموخ ينتظر من حبيبه أن يمدَّ يده إلى قلبه ليبعث فيه شُعاعا من الأمل، فيخاطبه بقوله: «يا حبيب القلب.. أنت وحدك تخلق النعيم، وتشعر الروح بالجمال الضاحك، وتذيقها السرور الحيَّ، الذي ينسخ أدران القلب، ويكسر حدة الزمان، فلا يُرى إلاَّ لطيفا لطيفا، قصيرا قصيرا، كجرعات الخمر المعتَّقة النفيسة، سرعان ما تنقضي، ولكن الروح تبقى أبدا الدهر منتشية بها، هائمة وراء خيالاتها».

ونحن في زماننا هذا أحوجُ ما نكون إلى تلكم الروح العالية المتفائلة، التي تبشِّر ولا تنفِّر، وتضيء قلوب الناشئة بأنوار التفاؤل، لتصنع منها مستقبلا أحسن وأسعد، فهل يعتبر المربون ويقتدون؟!

رابعا ـ سهم الزمن:

مجمل القول: إنَّ سهم الزمان عند محمد علي، لا

يسير بتتال ساذج[1]، بل يتنقل بحيوية وحرية بين الأزمنة الثلاثة، ويستعمل المرآة أداة للنظر إلى الماضي، والسعي في الحاضر، والتشوف إلى المستقبل، وفي ذلك يقول:

«أما والله إنَّ السعيد في الدنيا هو من يظفر بمرآة يرى نفسه في صفحتها، يظفُر بقلب يرى نفسه فيه. افتح عينيك يا صديقي، وانظر نفسك في مراياك، في قلوب أحبابك؛ إنهم لا يزالون يحسُّون بك مشرقا في قلوبهم، بهيجا تملؤها بالبِشر والحنان».

فزمن هذه الرسالة دائري تشترك في بنائه الأزمنة الثلاثة: القطر والمرتكز هو الحاضر، والمحيط يتأسس من الماضي والمستقل على السواء، بحيث يستحيل علينا تحديد بداية زمن ونهاية زمن آخر في هذه الحلقة.

خامسا ـ خلود المعاني:

يجدر بنا في آخر هذه المداخلة أن نقرأ نصًّا، استطاع أديبنا من خلاله أن يلج إلى أحداث عصرنا، ولا نقول: إنه تنبأ؛ ولكنها الحكمة وفراسةُ المؤمن الطاهر، الموصول بربه في عقيدة راسخةٍ، لا تؤثر عليها عوادي الزمان، ولا تقلبات الدهور. هذه العقيدة التي تحول العبارة البسيطة

(1) باباعمي: **مفهوم الزمن**، ص184. وانظر شبنجلر أسوالد: **تدهور الحضارة الغربية**، تر، أحمد شلبي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت. ص60.

إلى معنى خالد، لا ينتهي بموت صاحبه، بل يحيى ما حييت الكلمةُ الصادقة، ويثمر كلما تصارع الخير مع الشر على حلبة الحياة، إلى أن يتمكن فيه الخير وينتصر، ثم يلقى الله ـ بعد ذلك ـ شاهدا على قلب صاحبه، يوم تشهد على الناس ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، بما كانوا يعلمون[1].

وكأني بهذا النص ـ الذي انتقيته ـ ماثلا أمام الله شاهد خير لأديبنا، يبشره بجنات عرضها السموات والأرض، ورضوان من الله أكبر.

أنصتوا إليه في خشوع وهو يقول:

«حبيب القلب، هل أنت جاد في التحصيل؟ أمَا والله إن بلغني عنك أنك تتكاسل، أو تتشاغل عن العلم، لأرمينك بالمقت والصدود، ولأقطعن الصلة بيني وبينك إلى الأبد.

وأخـوَف ما أخـاف أن تـخوض في مستنقع الأحـزاب السياسية، وتركض فيها، وتغرق فيها هذه الفرصة التي أتيحت لك. وأخوف ما أخافه عليك (يا أنا) أن تغرك بهرجة السياسة، فتقبِل عليها، وتهجر رياض العرفان، فلا تنتهب منها الزاد الوفير.

أمَا والله ولو بلغني عنك أنك هكذا، لعمدتُ إلى قلبي، ونسختك منه، ولعمد سعيدٌ وأحبائي إلى قلوبهم ونسخوك

(1) وانظر الآية 24 من سورة النور.

منها، فقرُّة أعيننا أن نسمع أنك جاد في التحصيل، جاعلٌ قبلتك التي تديم التوجه إليها، هي الغاية العلمية التي نهتف بها.

وأخوف ما أخافه أن تتصباك المباهجُ المادية في الخضراء، فتهيم وراءها، وتتناسى المباهج الأدبية.

أخوف ما أخافه أن تكون كالفراشة التي تثب وتطفر بين الأزاهير، ليس لها منها إلاَّ مسحة من ألوانها تزين جناحيها، ولا تكونَ كالنحلة تقبل على الرَّوض في هيام عاصف، فتنكب عليه تلتهم من عسل أزاهيره ما تملأ به الخليات.

فإن لم تطلب هذا العلم لأمَّتك، فاطلبه لأنه أكبر شيء، وأغلى حلية تزينك وتفاخر بها، ولن تعدم أمتك منك فائدة بعدُ، ولو فائدة الافتخار والمباهاة بك.

أي صديقي ـ أنت (أنا) كما قلت مرات ـ وأريد أن تكون كالزهر المطلول نقاءً وطهارة ونضارة، فاستقم يقدر لك الله النجاح، استقم واعتصم بحبل الدين المقدس.

أغازل أفكاري، وأداعب قلمي، وصورة الأستاذ الجليل[1]، فاحتفظ بها، و لا تكثر من عرضها على الناس، فإنَّ ذلك مما لا يحسن، وكن كتوما لكلِّ أسرارك، إن

(1) لعله أرسل إليه صورة الشيخ بيوض «الأستاذ الجليل» ونصحه بالاحتفاظ =

أردتَ النجاح والفلاح الدائم، وأرسل لي أنت أيضا صورة أصدقائك لأطالع أطيافها».

بهذا أنهى محمد علي رسالته، وهنا يحسن بي أن أختم مداخلتي، والله أدعو التوفيق وحسن الخاتمة، والسلام.

= بها.

كيف تعرفت على محمد بابا عمي؟[1]

ذات صباح من سنة 1987 فيما أتذكّر طرق بابي في بيتي بالأبيار شابٌّ نحيفٌ قصيرٌ، أسمر البَشرة، له لحية خفيفة في ذقنه، لباسه متواضعٌ بسيط لا يوحي بالتنعُّم أو الترف، شدَّني إليه منذ أوَّل وهلة أدبه الجم، وأخلاقُه العالية، وكان يحمل معه محفظةً صغيرة من تلك المحافظ التي يحملها طلاَّب العلم.

قدَّم لي نفسه بعبارات موجزة، بصوت منخفض: محمد بن موسى باباعمي، طالب بكلية العلوم الإسلامية وأصول الدين، بجامعة خروبة.

فتحتُ له بابَ منزلي، وأدخلتُه إلى مكتبي، وفي أثناء الحديث أدركتُ منه أنه يرغب رغبةً أكيدة في التحصيل والعلم، وأنَّ له طموحا متلهِّفا إلى الاستفادة من تجارب الآخرين، ولا سيما في تحسين مستواه في الكتابة باللغة العربية، وعرض عليَّ معونته الأدبية في إطار جمعية التراث التي أُشرف عليها منذ 1983م، وأبدى لي إعجابه

(1) ذكرياتي ومذكراتي، ص503.

بنشاطها، وخدماتها، وأهدافها، وشعرتُ من حديثه أنه صادق ومتحمِّس للعمل في سبيل ما يُسعد الأمة الإسلامية جمعاء، وأنَّ له رؤية مستقبلية متفائلة.

وكنتُ في تلك الآونة في حاجة أكيدة إلى هذه المساعدة لأن ابن عمي ناصر موسى (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)[1] الذي كان مساعدا لي منذ نشأة الجمعية، انشغل بالتعليم في إحدى المتوسطات بالعاصمة، ولم يعد باقيا له من الوقت ما يكفي للقيام بما أكلّفه به من كتابة ولاسيما على الآلة الراقنة.

وهكذا التقتْ حاجتي إلى مُساعِد للقيام بالكتابة في إطار الجمعية، وحاجة الطالب النجيب باباعمي للاستفادة العلمية والثقافية والأدبية، وتحقيق طموحاته في هذا المجال.

وهكذا بدأ التعرف عن كثب ثم العمل المشترك، ثم التكليف بعد أشهر ببعض الأعمال ثقة مني في إخلاصه، واجتهاده، ووفائه أيضا.

وقد بهرني حقًّا منذ البداية بهذه الأخلاق العالية، بل أقول هذا السلوك الذي عزَّ في كثير من الطلاب الجامعيين،

(1) التقيت بالأخ ناصر موسى، ابن عم الدكتور ناصر، وعملتُ إلى جنبه وقتا قصيرا، ثم في خضم فتنة الجزائر، اختطف من بيته، وهو إلى اليوم لا يعلمُ مصيره، ورجح الكل أنه قد توفاه الله شهيدا، رحمه الله برحمته الواسعة.

الذين أخذت المادة تستهويهم، وتشد أنظارهم، وتستولي على ألبابهم ومشاريعهم الثقافية.

ولأني كنت على علم بأنَّ طلبة العلم يكونون دومًا في حاجة إلى العون الماديِّ، خصَّصتُ له مبلغا ماليًّا شهريًّا رمزيًّا، مقابل ما يؤديه من خدمات في مكتب أو مكتبة الجمعية، التي كانت في الطابق الأسفل من منزلي؛ يدخل إليها من باب خارجيٍّ دون إحراج مَن في الدار؛ وأعطيتُه مفتاح المكتبة المستقلَّة يدخل إليها ويخرج متى شاء وأنى شاء، وكنتُ لانشغالي بالتدريس في الجامعة المركزية أقابله من حين لآخر، وأتابع أعماله كلما تطلَّب ذلك مني أو منه.

وهكذا ومع الأيام توطَّدت العلاقات بيننا، فلم تعد مقتصرة على هذا الجانب الثقافي الأدبي وحده، بل تطورت إلى أن تكون علاقة أسرية عائلية.

إذ سرعان ما انسجم مع أبنائي الكبار والصغار يهتمُّ بأمور دراستهم وسلوكهم، وينبسط معهم، وبعد أيام أو أشهر (لا أتذكر) عرَّفني بوالده السيد موسى باباعمي، ثم تعرفتْ عائلتي بكل أفرادها على كل أفراد عائلته ولاسيما والدته وإخوته الذين يصغرونه بسنوات، وبعد تخرّجه التحمتْ صلتي به أكثر حين انتقل للعمل والتدريس بمعهد الحياة بالقرارة، إذ أعطيتُه محلَّ سُكناي بالقرارة يسكن فيه هو وأهله،

وفكَّرنا في استغلال ذلك المحل لنشاط مطبعي متواضع يكون نواة لعمل مطبعيٍّ متطور حسب قدراتنا أو قدرات جمعية التراث على ذلك، إذ كان من أهدافها إنشاء مطبعة لطبع ما ترغب في نشره من تراث، وسمينا تلك المطبعة «مطبعة النور»، فقد كنتُ متفائلا دائما بهذا الاسم.

واستطاع الابن باباعمي باجتهاده وطموحه وخدماته الجليلة في معهد الحياة أن يشدَّ أنظار المشايخ إليه ولاسيما مدير المعهد الشيخ عدون، والسري الوجيه صديقي العزيز أحمد جهلان، وتطورت تلك العلاقات إلى أن تصبح علاقات عائلية أيضا، فقد كان والده ووالدته وإخوته يزورون القرارة من حين إلى آخر.

وكنتُ أنا بدوري كلَّما زرت بني يزقن ووادي ميزاب أنزل عليهم ضيفًا مكرَّما، وكنتُ معجبا حقا بأخلاقه هو وأخلاق والده الذي كان يقابلني بالاحترام والأريحية، ويُطري كل مرة هذه المودة بيني وبين ابنه محمد، ويباركها بدعواته الصالحات، ورأيت بعيني بروره بوالديه وإخوانه.

وعندما سافرت إلى عمان في نوفمبر 1991 للتدريس بها، وغبتُ عن الجزائر، تركتُ له تسيير جمعية التراث، فأشرف على هذه المهمة خير إشراف، كما تركتُ بين يديه مكتبتي بكل ما فيها من كتب ووثائق أحسب أنها أفادته في دراسته وأبحاثه فائدة جليلة، ولاسيما في موسوعة

أعلام الإباضية في المغرب، بل إنني في فترة من الفترات أنزلتُه في محل سكناي بالدار الشرقية من القرارة، وهكذا أصبحنا عائلة واحدة نقتسم الآمال والآلام، ونخطط لمستقبل الجمعية والمطبعة معا.

وكنتُ في فترة غيابي أبعث إليه ببعض الأعمال العلمية التي تحتاجها بعض الوزارات أو الشخصيات العلمية في عمان مثل تحقيق بعض الكتب التراثية، والقيام بفهرسة بعض الموسوعات الفقهية من ذلك:

شرح النيل للشيخ اطفيش[1]، وعقيدة التوحيد للغيثي، وتفسير الكندي للكندي[2]، وغيرها، وكان يعاونه في هذه الأعمال التي تحتاج إلى رقن بالكمبيوتر وتحقيق المعلومات وتخريجها الأخ الكريم مصطفى شريفي، وأشهد أنهما كانا يقومان بعملهما أحسن قيام، إخراجا، وكتابة، وتوثيقا، وتحقيقا، والتزاما بمواعيد التسليم، ودام الحال على هذا ثلاث سنوات فيما أتذكَّر؛ ولأن الأخ أو الابن العزيز محمد كما كنتُ أدعوه وأراسله ـ كان ذا

(1) تم إعداد «فهارس **شرح النيل**» بمعية الأساتذة، في أيام مغلقة، ونشر في عمان؛ وبقيت الفهارس الموضوعية معلقة إلى اليوم، لم نتممها ولم تنشر.

(2) كذلك حققنا بمعية أخي الباحث مصطفى شريفي: «**التاج المنظوم من درر المنهاج المعلوم**» للشيخ عبد العزيز الثميني، و«**داعي العمل ليوم الأمل**» للشيخ اطفيش.

طموح بعيد جدا، ولأنه ذو حماسة شبابية متَّقدة كان يريد تحقيق آماله الأدبية والمادية في وقت سريعٍ معا، ومن هنا دخلتْ شياطين الإنس والجن فيما بيننا من نافذة المنفعة المادية لتعكر صفو هذه العلاقة الحميمة التي لم تُعكّر من قبل قطُّ.

ورغبة مني في أن تبقى العلائق بيننا أدبية علمية صرفة، طلبتُ منه إيقاف مشروع المطبعة، والإبقاء على جمعية التراث في مشاريعها الأدبية والعلمية الأخرى فقط.

وأحسب أنه وجد ذلك مساعدا له ليتفرغ إلى أعماله العلمية ودراساته الجامعية: ماجستير، ثم دكتوراه.

وما لبث أن ترك معهد الحياة ليستقر في بني يزقن، حيث أنشأ مشروعا آخر سماه (المطياف) وكانت هذه فرصة ليحلق بجناحيه بعيدا عن أي ارتباط سابق؛ لأنَّ طموحه البعيد كان يدفعه إلى الاستقلال بمشاريعه، وله الحق في أن يكون كذلك، وبدأت العلاقات الأدبية مع الأيام تفتُر قليلا قليلا، وابتعد عنّي أكثر عندما أسس هو وزملاء له جامعيون «المدرسة العلمية»، ثم «معهد المناهج»، إذ تحوّلت الاستشارة إلى إخبار، وأحيانا لا هذا ولا ذاك.

وعلى الرغم من أني كنت أبارك كل هذه الخطوات وأقف إلى جانبه فيها، إلا أني كنت لا أخفي عدمَ رضاي

عن كل خطواتها، ووسائلها، وأهدافها، وسيرورتها.

فقد طوَّحت به هذه الآمال بعيدا بعيدا، وأخذ ينأى في آفاق عالمية واسعة ممتدة، أحسبه مثل ذلك الطائر الذي راح يرفرف في الفضاءات الواسعة، وكلَّما اكتشف فضاء راح يكتشف فضاء آخر، وفي كل اكتشاف ينأى عن الأنظار شيئا فشيئا.

وأشهد هنا بأنَّ ذلك الطالب النحيف الذي كنتُ أصحح له كتاباته في بداية خطواته الأدبية ذات يوم قد حقق بعد سنوات بطموحه الجاد ـ كل ما يصبو إليه من نجاح وتفوق، وها هو ذا يشارك في المؤتمرات الفكرية الإسلامية العالمية، وينشر مقالاته في المجلات العلمية والفكرية والأدبية، متجاوزا كل الدوائر المنغلقة إلى الفضاءات الفكرية الرحبة، وها هو ذا يبذل جهده الكبير اللامحدود لإنشاء مشاريع علمية ثقافية ضخمة لطلاب العلم والمعرفة، ويساعد الشباب الطموح للاستزادة من علوم الدنيا والآخرة، في إطار ما عوّد نفسه العمل فيه ـ الإطار القرآني الكريم والسنة النبوية الشريفة ـ، زاده الله طموحا، وأمدّه توفيقا ونجاحا، وبارك له في تلك الخطوات التي بدأت حبوا فصارت رفرفة في السماوات العلى.

وها هو ذا يبذل خدمات علمية موفقة هنا وهناك من

بلاد الله الواسعة، وينشر أفكاره المتأثرة بأعلام الفكر الإسلامي أينما حل أو ارتحل، ولم يعد يكفيه أن يعيش في دائرة المحيط المحلي الميزابي الإباضي؛ بل أخذ يتطلَّع ويتفتَّح على عوالم إسلامية فسيحة أخرى، ولا أحسب أنَّ طموحه سيقف به عند حدود البحر الأبيض المتوسط؛ لأن نفسه خلقت للسباحة في المحيطات العميقة حيث الصيد الوفير، واللؤلؤ الكثير.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الذي شدّني ويشدّني في الابن محمد هو وفاؤه، وصدقه، وإخلاصه، وتقديره الكبير لشخصي الضعيف، وتعبيرُه عن مشاعره تلك كلما حانت له الفرصة، ولاسيما أثناء مراسلاته لي إلى عمان، أو محاضراته التي كان يشارك بها في أفراح أبنائي في التسعينيات، وشاءت الأيام والأقدار أن أتعرّض لبعض التهجم من بعض من لا خلاق لهم من بني جلدتنا، لا أحب ذكر أسمائهم ولا أعمالهم ولا كتاباتهم، بعد أن قلتُ حسبي الله ونعم الوكيل، غير أني لن ولن أنسى له ـ مهما أنستني الأيام ـ مواقفه إلى جانبي مما يدل على وفائه وإخلاصه في وقت الشدة.

فقد كان الوحيد الذي كتب مقالا يرد فيه بكل حسم وحزم على أولئك الذين حاولوا تشويه سمعتي بما كانوا يكتبونه ضدي وفي شخصي.

موقفه الأول كان ضد وريقة ما يُدعى (تيفاوت) التي يحرّرها بعض الطلبة الجامعيين ممن انساقوا مع دعاوى الجاهلية نصرة للأمازيغية ضدَّ اللغة العربية، وكانوا في كتاباتهم منحازين متحاملين، منساقين مع ذلك التيار الذي عُرف في ذلك الحين «الربيع الأمازيغي».

والموقف الثاني ردُّه القوي الذي جمع معه ثلة من إخوانه الجامعيين ضد من حاولوا النيل من شخصي واتهامي بالكذب والافتراء؛ لأني ذكرتُ حقائق تاريخية تتعلق بتاريخ شيخنا بيوض، وهنا كان الابن باباعمي الوحيد الذي نصرني من بين الأصدقاء والزملاء؛ إذ تجرأ على الرد على ذلك المنشور الذي أعماه التعصب، وانحرفت به العواطف الجهوية، والحزبية.

كما لا أنسى أنَّ الفضل يعود إليه في التفكير لتكريمي مرتين بعد مرضي سنة 2004، مرة على مستوى مسجد المنار بالحميز حيث أشرف مع ثلة من الأصدقاء والزملاء والأبناء على تكريمي في حفل جميل وإقامة معرض لأعمالي ومؤلفاتي، وإلقاء كلمات طيبات في لقاء إخوانيٍّ، حضره أصدقائي الأعزاء وأشرفوا عليه من أمثال الشيخ بلحاج شريفي، والأستاذ محمد الهادي الحسني، وسعيد محمد، وباجو مصطفى، وبحاز إبراهيم.

وأضاف إلى هذه المكرمة مكرمة أخرى إذ صنّفني

ضمن من يستحقون وسام العالم الجزائري، فأقام بمعهد المناهج حفلا بهذه المناسبة دعا إليه جمهورا غفيرا من أصدقائي وزملائي وأفراد عائلتي، ونشّطه وأشرف عليه بنفسه، جازاه الله عني خير الجزاء، وجعلني عند حسن ظنهم بي.

وقد كانت له وقفات وكلمات ومحاضرات يعبّر لي فيها عن إخلاصه ووفائه في مناسبات عديدة من ذلك مثلا: عرس ابني يحي سنة[1] 1997، حيث ألقى محاضرة ينوّه فيها بشخصي الضعيف، ويشيد فيها بتلك العلاقة الودية الحميمة التي تربط بيننا.

وتعبيرا عن هذه العلاقة في الله كتب لي حين أهدى إليّ مؤلفه المعنون: «فتح الله كولن ومشروع الخدمة» ما يلي: «هدية حب وصفاء لأستاذي الدكتور محمد ناصر، وإني لأعترف له بالجميل والفضل في كل حرف أخطه، وله من الله الأجر والجزاء». أستاذي: لن أزال أحبك في الله، ولله، إلى أن ألقى الله، ولا أبالي. تلميذك محمد بابا عمي (مايو 2011).

أسأل الله أن يمدّ أنفاسها، ويطيل أيامها، ويجعلها حبا خالصا لوجهه الكريم، حتى نلقاه وهو عنا راض في سرر

(1) ينظر في هذا الكتاب: «**الدكتور محمد ناصر: البنوة البارة، والأبوة الفياضة**».

متقابلين.

وإني إذ أذكره في هذه المذكرات ـ بما يليق بمكانته في نفسي ـ فإني أردّ بها على مرضى القلوب الذين يُشيعون بأن كل مشاريع الابن محمد باباعمي هي من تشجيعي أنا، وأنَّ ما يُحسب من أخطاء تُرتكب من حين لآخر في هذا السبيل ـ وهو أمر طبيعي ـ هي أخطائي أنا، اعتبارا لتلك العلاقات الحميمة بيننا.

ولكن ـ يعلم الله ـ أني قد أخالفه الرأي في كثير من تلك المشاريع الثقافية، غير أني لا أرغب في أن أكون ذلك الأب الذي يضيّق على أبنائه في حياتهم، ويريد أن يُلبسهم لَبوسه، ويسير بهم في آثاره وخطواته، لسبب بسيط وهو أني أتذكّر دوما طموحاتي أنا الآخَر عندما كنتُ شابا أتّقِد حماسة وطموحا مثله، فقد كان ثقيلا على نفسي أن أجدها محاطة بأسلاك التقليد والتبعية، وقد جعل شعارا له كلمة قالها له أبونا الروحي الشيخ عدون «لقد أوجدنا حلولا لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا حلولا لعصركم».

ولعلي أسمح لنفسي بالقول ـ لما لي عليه من دالة ـ بأن سرّ تفوق الابن الدكتور محمد باباعمي هو انضباطه، والتزامه، وحبُّه للعمل، ومحاسبة نفسه على ألاَّ يضيِّع من وقته ثانية، يعرف أنه سيحاسبه الله عنها كيف قضاها؟ وماذا عمل فيها؟.

ثم هي تعود إلى قوة تحمُّله المتاعب بكل أنواعها، النفسية، والأدبية، والمادية، وعدم استسلامه لأول عائق، ورغبته الأكيدة في أن يكون رقما فاعلا في حسابات نجاح أمته الإسلامية، وركنًا شامخا في بناء هذا الصرح الإسلامي المتطلع إلى النصرة والتمكين، ومن كانت هذه طموحاته، وخصائصه لابد أن يتميَّز، ويتفوق، وله الحق في ذلك، وهذا كله من توفيق الله له وحده، ولا فضل لأحد فيه عليه.

وعسى أن يجعلني ربي من أولئك الذين يدْعُون لأبنائهم أكانوا من أصلابهم أم من إخوانهم: «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما»...

وعسى أن يجعله ربي من أولئك الأبناء البررة الذين يَدعون لآبائهم أكانوا حقيقيين أم روحيين: «رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

نموذج من المراسلات (بين الأستاذ والطالب)

نموذج من رسائل الدكتور محمد بن موسى باباعمي (طالبا)[1]

حمدا وصلاة وسلاما

أستاذي ومعلمي الكريم: سلام عليك وتحيتي من أعماق قلبي إلى قرارة قلبك الطيب[2].

أستاذي: الساعة الآن الثانية عشرة ليلا، وأنا جالس إلى مكتبك أخط إليك كلمات دعاني إليها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الإدلاء بها.

أستاذي: كتبت في مذكرتي يوم سفرك ما يلي: «.. وبسفر أستاذي وجدتني ـ في منزله ـ في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب». وأنا لا أتقن السباحة، وإن كنت عطشانا، قدمت من صحراء قاحلة تدعى «الجامعة»، فقلت في نفسي: يجب أن أشرب حتى الثمالة، فإذا ما انتهيت تعلّمت السباحة...».

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**، ص572.

(2) المراسلة من العاصمة إلى القرارة بتاريخ مارس 1990.

أستاذي: هكذا عكفت على مطالعة «الحيوان» وكتاب «الإمتاع والمؤانسة» وشعر نزار قباني ودراسة «إيليا الحاوي لنزار»[1]. وحضّرت الجزء الأول من بحث في «الربا». وحفظت مقطوعات شعرية مهمة. كل هذا سوى محاضرات: الخليلي، وديدات، والقطان، وشريط العنف....إلخ من الأشرطة الهامة والتعليمية التي جلست إليها بإمعان. زيادة على الأعمال التي تركتها لي فقد قمت بما أمكن لي القيام به.

أستاذي: هكذا فيما لا يقل عن ثلاثة أيام تمكّنتُ من الاستفادة بما لم أستفد به في الجامعة خلال نصف سنة. فجزاك الله عني كل خير ورضي عنك وعن عائلتك الكريمة.

أي أستاذي: حتى الطبخ تمكنت من إتقانه، فأنا أطبخ فطوري وسحوري بعد الرجوع من الجامعة في القيلولة!!

أي أستاذي: كنت منذ حين مع محاضرة سماحة الشيخ أحمد القطان، وشريط الجهاد، فقد هز كياني، وحرّك فيّ روح محبّة الجهاد، خاصة وأنه رجل عملي وحركي، وحفظت من قصيدته قوله:

(1) فقد سقط نزار من عيني، وطالعت «**ما أحوجنا إلى أدب إسلامي**» فوجدت فيه عيني.

بـالـديـن يـصـبـو الـمـرء لـلـعـلـيـاء
ويـنـال مـا يـرجـو مـن الـنـعـمـاء
الـديـن نـور والـجـهـالـة ظـلـمـة
شـتـان بـيـن الـنـور والـظـلـمـاء

وأهم من هذين البيتين ما جاء في آخر شطر من القصيدة: «**ترك الشباب أساس كل الدّاء**».

أقول: إنك أعلنت عن هذا المعنى الجليل، بالعمل والقدوة، فقد كنت دوما سندا للشباب، والصورة التي أمامي وأنت تلقي قصيدة أمام الشباب من قافلة مفدي أكبر دليل على ما أقول، ومعاملتك لي وفضلك عليّ كاف لإقرار ذلك.

نموذج من رسائل الابن العزيز محمد بن موسى باباعمي (أستاذا)

من القرارة إلى عمان سنة 1992م[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة شكر وعرفان ووفاء من تلميذ لأستاذه، من ابن لوالده، من محب لحبيبه في الله...

أستاذي الجليل محمد صالح ناصر. سلام وتحية واحترام.

وبعد، فبمناسبة العيد المبارك، عيد الفطر السعيد، أحييك وأدعو الله أن يديم عافيتك وصحتك، ويقويك على العمل والعبادة والعطاء والسخاء... أن يمنحك الصبر لتواصل سبيل الخير الذي خلقت له، والذي لم نألفك إلا مرشدا إليه وقائدا فيه.

أستاذي الوفي: إن كلمات هذه الرسالة تنبع من القلب، وإن لم يقدر اليراع من الإعراض عنها، فما ذاك إلا لعجزي وجهلي، ولعل هذه الكلمات من أصدق الكلمات التي قلتها أو سأقولها في حياتي، وأشهد الله بها يوم الجزاء. فلا تلم قصور الحروف، ولا قصر الباع، وعذري عند الكرام مقبول.

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**، ص707.

أستاذي: عرفتك فعرفت العلم بك، وعاشرتك فعاشرت الإخلاص والصبر والوفاء، ووالله لم أذق طعم ولا لذة العلم حقيقة، إلا على يدك السخية المعطاءة. وإني لأخجل أن أنسب نفسي إلى المعهد العالي لأصول الدين، خجلي من الانتساب إلى الفوضى والكسل والبلادة...، ولكن الله أبدلني ـ بفضله ومَنِّهِ ـ بنسبة لا أشرف منها ولا أعلى: نسبة العلم والأدب، السخاء والعطاء، والصبر، والوفاء، والحكمة الرزينة، والفكر السديد، والقلب الفسيح، والكلمة الطيبة، والنظرة الوقورة، والابتسامة المنشرحة، والغضب اللطيف لأجل الحق...

تلك النسبة التي أعتز بها اعتزازي بالحياة لأجل الحق، تلك النسبة التي انفردتم بها، وتبوّأتم بها عرش قلبي، وملكتم بها قرارتي وجَنَاني، فأعتز بتذللي إليكم وأعتبر ذلك من أقرب القربات إلى الله، فالرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يأمرنا بالترحم على عبد علمنا ولو حرفا، فكيف بمن علمنا حياة ودينا وأدبا...؟!.

أستاذي: وقد حباني الله بوالدين كريمين، فعَلَّماني الخُلق القويم، وأعز ما علماني أن أتذلل وأخضع لمن يعلمني ولو حرفا، وعلماني أن أعتقد دوما أنني لا أعلم، وفحوى كلامهما يقول: ذل العلم عز وملك ثان. ولم أكن لأعصي والدي بعدما انعدم الأساتذة المتخلقون في

الجامعة، وهداني الله إلى من يقوم مقامهم جميعا ويزيد.

تالله إنَّ هذا لمِنْ فضل ربي ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

أستاذي: أعدك وعدا صادقا، أن أخلص إليك ما حييت وأن أسعى إلى إرضائك ما استطعت، فإن كنت دون المستوى ـ وهو الغالب فِيَّ ـ فاعتبر ذلك قصورا لا تقصيرا، وسأسعى جاهدا إلى الدفع بفكرك وعلمك نحو مبتغاك، ولذا أريد أن أفني جهدي وقوتي في السبيل الذي سطرته ـ على تقوى من الله ورضوان ـ وإن متُّ على غير ذلك فقد خنت العهد. فادع الله لي في جوف الليل أن يثبتني على الحق.

أستاذي: اعتبرني ابنا لك وخادما، وامرني بما ترى فيه الصلاح فإني موفٍّ إن شاء الله واسمح لي أن أستعير ما قاله سيدنا موسى عليه السلام للخضر الذي علمه الله من لدنه علما، أقول لك: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فإن قلت: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، قلت: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وفي الطريق سأنسى فـ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، وإن تماديت في النقص والضعف، ـ وهو ما أعتقده الآن اعتقادا جازما ـ فأنت مصيب في أيِّ تصرّف تتصرَّف به معي و﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، وإني لأخشى اليوم الذي تقول لي فيه ـ وأنت

صادق كل الصدق ومأجور عند الله ـ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أستاذي: اسمح لي بالتطفل في حياتك العلمية، وبالإعراب عن قرارة نفسي واعتقادي حولها !.

الحق أنني معجب كل الإعجاب بمسيرتك العلمية: من تعليم، وتأليف، ونشر، وتوجيه، وإنشاء لـمَعْلَم الأمة ومفخرتها: جمعية التراث...

اسمح لي أن أدلي برأيي في مجال التأليف والنشر: ذلك أني لاحظت سعة العلم والمستوى، وضخامة الجهد والطاقة، إلا أن أعمالك لم يكتب لها النجاح الذي كتبه لوجوه عالمية أقل منك مستوى وخبرة. وأرى أن نبحث سويا عن السبب، وهاك أسباب رأيتها، وهي قابلة للنقاش والإثراء:

أن الجزائر ـ كوطن ـ لا تسمح للعظماء بالبزوغ، وتشجع الرذيلة على حساب الفضيلة وتنفق الأموال الطائلة للرياضة والغناء... وتحرم أمثالك، وإن أمة لا تعرف الفضل لرجالها لحري بها أن تبلى وتشقى وتفنى ...

أن أهلنا ووطننا ميزاب، لا يقيس الرجل بعطائه العلمي، وإنما يقيمه بمبلغه من المادة وأن بناء دار للعشيرة أولى في اعتقاده من إعداد رجل وقائد يعمر تلكم الدار، ولمّا

يعرفوا للعلم قدره، فساد ـ في الغالب ـ جاهلهم وتعذب عالمهم...

إن الوسائل التي تحيط بمؤلفاتكم: من المبالغ المالية، ووسائل الطباعة والنشر، إلى تقنيات الإخراج والعرض... كلها ضئيلة وبدائية بالنسبة للعطاء العلمي الوافر الذي تمتازون به.

أحسست أن سفركم إلى عمان سببه الرئيسي هو المحنة التي تعانون منها من جراء الأسباب التي ذكرتها، ولكن بعد اتصالي بعدد منجزاتكم الكبرى تيقنت أن الجزائر وعمان ـ على السواء ـ لم تتمكنا من احتواء آمالكم وأعمالكم، والله يعلم أني تحسرت وقلقت كثيرا، خاصة بعد اطلاعي على الإنجاز الضخم أصول الأرضين، وأنا في مكتب سعادة السفير وقلت في نفسي: إلى متى نواصل في هذه المهزلة، وماذا يقول من يطالع الأخطاء الجسيمة التي ترتكبها المطابع جناية في حق أعمالكم.

وكان الجواب صريحا: إن التاريخ لا يرحم، وأقلام النقاد سيوف قواطع قد جُرِّدَت وبعضها قاطع في غمده، وقبل ذلك وبعده ألم يأمرنا إسلامنا بإتقان العمل وإن قلّ... وكيف أسمح لنفسي بمطالعة مؤلفات المستشرقين والأوروبيين وبعض المشرقيين، دون أن أعثر على خطأ، وبمطالعة أعمال عظمى أنجزتموها وتحمل أخطاء لم

ترتكبوها؟

أليس لسان حالكم يهتف بدعاء الرسول ﷺ: (**اللهم إنا نعوذ بك من شر لم نعمله**)؟ ! قلت: كيف أسمح لنفسي بالتقاعس والكسل، وأنا أجد نفسي طرفا في القضية ؟!.

أستاذي: من وحي هذه التأملات والملاحظات، أحاول أن نجد حلا ناجعا وفعَّالا، وهذا ما دفع بي إلى اقتراح الشركة، وإن لم أصرح به.

شهادات حية عن الدكتور ناصر

(من معاشريه، وطلبته، ومحبيه)

تكريم الباحث عن الحقيقة[1]

أ.د. أبو القاسم سعد الله[2]

ما أكثر المُكَرَّمِين في بلادنا هذه الأيام وما أقل من يستحق التكريم؟ إن هناك مواسم عندنا تكثر فيها الأنشطة التي تكون عادة تحت عنوان تكريم فلان أو فلانة، من الأحياء أو من الأموات، هذه المواسم تكون عادة في نهاية السنة أو بدايتها حين تكون الأيدي ندية بالمال، والمناسبات المفتوحة للقيل والقال.

حصل هذه الأيام تكريم لم نسمع عنه في الصحف ولم تصدع به الإذاعة (وربما فعلت) ونعني به منح وسام «العالم الجزائري» للأستاذ الدكتور محمد ناصر. كان ذلك في 29 مايو 2008 في معهد المناهج الواقع في ابن زرقة قرب الجزائر العاصمة. ومن سوء حظي أني لم أحضر المناسبة رغم علمي بمكانه وزمانه ووعدي بالحضور، وكان ذلك لعذر قاهر أعلمت به أصحاب الدعوة في حينه (والعذر عند كرام الناس مقبول).

(1) **ذكرياتي ومذكراتي**، ص919.

(2) جريدة الشروق، عدد: 2008/06/29.

الدكتور محمد ناصر من القلائل الذين يستحقون التكريم من هذا الجيل المخضرم الذي حزم الكثير منهم حقائبه ورحل.

بدأ حياته العلمية في معهد الحياة بالقرارة، وكان شيخه ومعلمه المفسر المعروف الشيخ إبراهيم بيوض الذي كون جيلا من المثقفين في أعماق الصحراء، وأرسل بعضهم في بعثات علمية متوالية إلى تونس وكان محمد ناصر منها فيما نعتقد[1]. درس محمد ناصر أيضا في جامعة الجزائر التي حصل منها على شهادتي الماجستير والدكتوراه. ومثل معظم المثقفين الصحراويين، مارس الشعر وأجاد فيه، وسار على طريق رمضان حمود ومفدي زكريا وصالح خرفي. وكثير غيرهم ممن رفعوا من قدر الشعر، وكان منهم من سيَّسَهُ ومنهم من شخصه، ومنهم من جعله وليد بيئته فتغنى به في واحات النخيل والمزارع والهواء العليل والليالي المقمرة وهذا هو ميدان محمد ناصر في شعره الأنيق .

كان اهتمام محمد ناصر في الدراسات النثرية والنقد الأدبي منصبا أيضا على الشعر والشعراء، مخصصا للدكتوراه الشعر الجزائري الحديث وقد درسه في شعرائه

(1) هذا سهو من الكاتب فأنا لم أدرس بتونس قط، وإنما درست بجامعة القاهرة.

ونصوصه ثم حلل النصوص والنفسيات وركز على النقد فاعتنى بالجمال والخيال والأسلوب وتابع الشاعر في صدقه وسجيته وانسيابه أو في منعرجاته وتكلفه وحيرته وهكذا كانت دراسته للشعر مع النماذج النادرة التي أوردها لحياة الشعراء والكشف عن الكثير من مخبآتهم، كانت لبنة هامة في الدراسات الحديثة . محمد ناصر في هذا الميدان ينتمي إلى مدرسة النقد العربي الحديث الأصيلة وليس إلى المدرسة المقلدة لاتجاهات النقد الأوروبي التي ما تزال ترفع صوتها في عالمنا متغطية بعباءة الحداثة تارة والعولمة تارة أخرى، والواقع أن محمد ناصر من الأوائل الذين اهتموا بتاريخ الصحافة العربية والجزائرية خاصة، وقد كرس رسالته الدكتوراه لهذا الموضوع، وكانت صلته بعميد الصحافة الجزائرية: أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى ربما هي التي أثرت عليه وجعلته يبحث عن آثار الماضين في هذا الدرب، فكانت حصيلة هذا الاهتمام المفيد عملين مرجعيين أساسيين هما: المقالة الصحفية الجزائرية (رسالة الحلقة الثالثة) ثم الصحف العربية في الجزائر من 1847 إلى 1939. وإذا كان محمد ناصر في الرسالة جامعا منصفا وناقدا، فإنه في الكتاب الأخير، بحث في إنشاء ومسيرة وأهداف عدد من الصحف والصحفيين في تاريخنا، مثل المبشر والمغرب

وكوكب أفريقيا ووادي ميزاب والشهاب والنجاح... وكثيرة هي، أما الصحفيون فمنهم أحمد البدوي وأبو القاسم الحنفاوي ومحمود كحول وعبد الحميد بن باديس وأبو اليقظان، إن من يقرأ أعمال الدكتور محمد ناصر يدرك أن الرجل مدقق ومحقق، فهو لا يتسرع في إصدار الأحكام ولا يبالغ ولا يسرف، وأسلوبه واضح جلي، فهو دارس وباحث عن الحقيقة، ملتزم بالمنهج العلمي حتى في المسائل العاطفية أو التي تحتاج إلى حكم غير عاطفي، وقد عرفت ذلك منه أثناء مراسلته عن بعض الأمور طلبت توضيحها منه، فكانت أجوبته متحفظة شأن العالم الدقيق إلى جانب الدراسات الأكاديمية والشعر.

ألف محمد ناصر عددا من التراجم الشخصية لبعض الأدباء بحيث خص لكل واحد من الأسماء التالية بكتاب مفيد في بابه: عمر راسم، رمضان حمود، مفدي زكريا، إبراهيم بيوض، أبو اليقظان، وقليلهم الذين يستطيعون غير محمد ناصر، أن يكتبوا عن هؤلاء نظرا لمعرفته بهم شخصيا أو لدراستهم عن كثب من خلال آثارهم، مثل عمر راسم الذي عرفه من خلال دوره في صحيفة الجزائر، وفي الموسيقى وفي الرسم أيضا، أما أبو اليقظان فقد قلنا إنه صهره[1]، وقد ترك له مجموعات صحفه ومخطوطاته عن

(1) أبو اليقظان شيخي وأستاذي، وقريب من عائلتي ولم يكن صهري، ويشرفني

الصحافة وغيرها، فاستفاد منها محمد ناصر، ومن ثمة أفاد بها القراء. عرفت محمد ناصر طالبا وأستاذا في جامعة الجزائر سنوات طويلة، وكان دمث الأخلاق متواضعا مباشرا في كلامه وملاحظاته، ثم عرفته في سلطنة عمان يوم ذهبت إليه زائرا بدعوة من إحدى وزاراتها لإلقاء محاضرة، كما عرفته من خلال المراسلات معه عن بعد أثناء تحضيري لتاريخ الجزائر الثقافي، فكان نعم المعين، وأخيرا عرفته متقاعدا بإخراج سلسلة من كتب الأطفال ذات توجيه حكيم وتربية سليمة، متعه الله بالصحة وليهنأ بوسامه وليعتبر أن المثقفين الذين يقدرون جهوده وتواضعه كلهم يصافحونه مهنئين بالتكريم.

أن تكون حفيدتان من حفيداته زوجتين لابنين من أبنائي وهما مصطفى ويحيى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدكتور الصديق محمد صالح ناصر

محمد بن سعيد شريفي

القرارة ديسمبر 2018م

ثلاث سنوات عمريّة بيني وبين صديقي محمّد صالح.

تزاملنا في كشّافة الحياة، وتعاشرنا في معهد الحياة، وتساكنّا في القاهرة، وتصادقنا إلى الآن وإلى ما شاء الله.

صديقي محمّد؛ بهيّ الطلعة، لطيف المعشر، جمّ النشاط، طموح الهدف؛ أوتي ذكاء متّقدا، واجتهادا متواصلا؛ يصبو إلى كسب العلوم، وحبّ الفنون؛ فأشاع الألفة في محيطه، والوفاء لمجتمعه.

نشأ في بيئة مصونة، وتشرّب أخلاق أساتذته، فزكت مسيرته، واتّسعت مداركه.

حبّه للعلم استلّه من مغريات التّجارة بتوفيق الله؛ سار في دروب الأدب ينظُم الأشعار ويتذوّقها، ويُنشد الألحان ويشدوها بصوته الشّجيّ، يؤلّف المسرحيّات

ويمثّلها.

وكما تابع أطوار دراساته سدّد بوفاء وصدق حقوق منشئه، فغدا معلّما في المدرسة التي احتضنته، ثمّ أستاذا في المعهد الذي تخرّج فيه، وفي جامعة الجزائر أستاذا لسنوات، حيث نال شهاداته العليا.

إنّ نهجه الشّمولي في حياته الثقافيّة بوّأته مكانة عليا في مصافّ الأدباء. لقد سخّر أدبه في تمجيد المُثل العليا، والفضائل السّامية، والأهداف النّبيلة بعزم وشجاعة.

واكب حوادث مجتمعه، يصول بالحق ويواجه المناوئين بتحدّ وإقدام. وأصدر دراسات عن العلماء الأجلاّء إحياء لذكراهم واعتبارا لسيَرهم، وألّف للبراعم مُثُلا وقصصا.

له عيون من الأبيات البليغة، أذكر له مثالا واحدا في رثاء الشّيخ القرادي:

ومـــوتـــة فـــرد لـــوعـــة ومـصـيـبـة
فكيف بموت الجمع في موت مفرد

تقويم صادق يقدّر مداه من عاشر الشّيخ القرادي.

أهّلته منهجيّة دراسته بجدارة واقتدار إلى مجالات التّاريخ الإسلامي والاجتماعي، مؤلّفا ومحقّقا، وناقدا وناشرا؛ ومئاتُ مؤلّفاته تشهد بذلك، وإنّ مذكّراته الشّيّقة لتُطلعنا على جهاده وتفانيه في نصرة مبادئه، وكفى بها

تعريفا وتقييما.

ولمّا ابتلاه الله بالقصور الكلوي ـعافاه اللهـ تحسّبه لله بالصّبر الجميل والرّضا بقضائه.

كنت أشجّعه على اللّحاق بي في مصر للدّراسة، ومن رسالة بتاريخ 06 أفريل 1962م كتبتُ له حرفيّا ما يلي: «أسرع يا عزيزي ولا تتردّد، واتّكل على الله، ولقد زدتُ فدرست مسألتك، وذكرتها للملحق الثّقافيّ، فأصبح هو الذي يسألني عنك».

لقد توسّمت فيه النّجاح، فحقّق حلمه بإصرار، وتخرّج في جامعة القاهرة بتفوّق وامتياز.

وعلى غلاف كتابه (بعد الغسق يأتي الفلق) الذي رسمته بخط يدي، ثم أهدى الكتاب لي ووقّع بنظمه محيّيا:

وخطّك في الغلاف محطّ قلبي
وحظّك في اللّباب دليل حبّي

إشارة إلى القصيد الذي خصّني به في الكتاب بعنوان: «يا مبدعا».

متّع الله صديقي بالصّحة والمعافاة، وختم مسيرته بالرّحمة والقبول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

شهادة حية عن الدكتور محمد ناصر

الأستاذ الفنان إبراهيم أحمد مردوخ

27 **فيفري** 2019

أعتبر الدكتور محمد صالح ناصر صديق العمر فقد تعاشرنا في ثلاث مراحل من عمرنا.

- مرحلة الصبا في السنوات الأولى بمدرسة الحياة.
- مرحلة الدراسة بمعهد الحياة.
- مرحلة الدراسة بالقاهرة.

1. مرحلة الطفولة:

ففي مرحلة الصبا التقينا سويا في مدرسة الحياة لمدة ثلاث سنوات وتتلمذنا على المشايخ: الشيخ يوسف خرفي المحبوب جدا إلى كافة تلاميذ السنة الأولى لأسلوبه البيداغوجي المتميز، وكذلك الشيخ محمد احجوجة والشيخ سعيدي محمد بن باحمد. وذلك قبل أن نفترق؛

فقد غادرت القرارة إلى العاصمة لمواصلة الدراسة وبقي زميلي ناصر بالقرارة ليكمل الدراسة هناك.

2. مرحلة الشباب بمعهد الحياة:

شاء الله أن نلتقي مرة أخرى بالقرارة لمدة ست سنوات بعد رجوعي من العاصمة واستقراري بالقرارة، التقينا في رحاب معهد الحياة نتلقى العلم من أساتذة ومشايخ أجلاء: الشيخ عدون، والشيخ محمد علي دبوز، والشيخ الناصر المرموري وغيرهم. كما أن الشيخ بيوض احتضننا بدروسه وعنايته في السنة النهائية للمعهد.

وللشهادة فإن زميلي الدكتور ناصر ظهر نبوغه باكرا بفضل العناية التي كان يحظى بها من محيطه وخاصة والده: عمنا صالح ووالدته رحمهما الله. وقد استطاع أن يجهز لنفسه مكتبا خاصا به مزودا بخزانة غنية بالكتب الأدبية وكثيرا ما كنا نطالع سويا في مكتبه.

كنا لا نكاد نفترق، نلتقي في المعهد في الحلقات التي تجمعنا في المسجد الكبير أو في الأقسام أمام المشايخ، وكنا نجتمع كذلك خارج الدروس والحلقات نحضّر للامتحانات رفقة زميلنا قاسم بكوش وابن عمر عمر بن الحاج محمد رحمهما الله، وكانت تجمعنا كذلك حلقات المطالعة نستمتع فيها بثمرات ما أنجزته المطابع من

الكتب الأدبية، كان زميلي محمد ناصر مولعا بالمطالعة، وكان يعرض علينا ما يقع بين يديه من الكتب الأدبية، وقد تعرفت من خلاله على قصص وروايات الأدباء المصريين من أمثال أمينة السعيد، عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وغيرهم، وبفضله أصبحت من محبي المطالعة الأدبية لا سميا قصص وروايات يوسف السباعي، أصبحت أقتني كتبه وأشتريها من مكتبة النهضة بالعاصمة كلما سنحت لي الفرصة.

وكنا سويا نتابع تطورات الحرب التحريرية من خلال مطالعتنا لجريدة البصائر التي كانت تصلنا إلى القرارة قبل إغلاقها من طرف الاستدمار، كما كنا نتابع أخبار الثورة من خلال إذاعة الثورة وركن «صوت الجزائر المكافحة» التي كان يبثها المجاهد عيسى مسعودي من الإذاعة التونسية، كنا نستمع إليها في غرف مغلقة وفي الدهاليز خوفا من رقابة السلطات الاستعمارية.

3. مرحلة الدراسة بالقاهرة:

عند حلولي بالقاهرة في صيف 1962 وجدت زميلي محمد ناصر في استقبالي في المنزل الذي يسكن فيه 09 شارع الفردوس الدري سابقا، وقد سمح لي باتفاق مع زميلنا محمد شريفي أن أشركهم السكن، وكانت نعم الرفقة.

قضينا أربع سنوات بالقاهرة من أمتع أيام العمر، أيام كلها جد ونشاط واستفادة من الجو الثقافي الذي تزخر به عاصمة الثقافة العربية، حضور الندوات الأدبية والاستمتاع بالأفلام والمسرحيات الهادفة، وكثيرا ما كنت أرافقه إلى معارض الكتب التي تقام بمناسبة الأعياد الدينية بميدان الأزهر الشريف وسيدنا الحسين، حيث كنت أساعده في نقل مشترياته من الكتب إلى البيت بالرغم من بُعد البيت والمواصلات العامة المكتظة، ولا نصل إلى البيت إلا بعد جهد جهيد محملين بالقناطير المقنطرة من الكتب.

تلك ذكرياتي التي عشتها مع زميلي الدكتور ناصر ذكريات كلها أخوة وصدق وإخلاص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قصيدة: عذرًا أستاذي!!

د. محمد ناصر بوحجام

قصيدة نظمها د. محمد ناصر بوحجام اعتذارا عن عدم حضوره الملتقى الوطني: الإبداع الأدبي والدراسات النقدية الجزائرية جهود الشاعر الدكتور محمد صالح ناصر نموذجًا، الذي نظمته جامعة غرداية، يومي: 30 ـ 31 أكتوبر 2018، وغيابه عن التكريم الذي نظمته جمعية التراث ومعهد الحياة بالقرارة في نفس البرنامج.

عَنْ مُلْتَقَى الدّكتور كَان غِيابِي
هَلْ يُشفعُ لي، أمْ يَطولُ حِسابِي
إنْ جِئْتُ بِالعُذْرِ الصّريحِ، يَقينِي
مِنْ جَمْعِ أَهْلِينَا شَديدَ عِتابِ
لي مَوْعِدٌ في مَسْقَط لِعِلَاجِ
رِجْلِي، وَمَوْعدُ مُلتَقى، أَحْبابِي
العُذرُ عِنْدَ كَريمِ نَفْسٍ مَوْضعٌ

لِـرِضًـى، يَـنَـالُ بِـهِ عَـظِـيـمَ ثـوَابِ
مَـا غـابَ عـنّي قـدرُ أُسْـتَـاذي، لسْـ
ـتُ أَنَـا ضَـنِـينًـا أَنْ أَفِـي بِـنِـصَـابِـي
رَدًّا لـفَـضْـلٍ خَـصَّـنـي بِـهِ: نُـصْـحًـا
وَرِعـايَـةً، وَدَمَـاثَـةَ آدابِ
فـمـحـمَّـدٌ نِـبْـرَاسُ دَرْبِـي فِـي مِـضْـ
ـمَـارِ الـعُـلُـومِ وَفِـي ذُرَى الآدَابِ
هُـوَ قُـدْوَتِـي وَمَـنَـارتِـي، مَـنْ شَـدَّ
أَزْرِي، بِـفَـتْـحِ الـبَـابِ دُونَ حِجاب
لِـمـآرِبِـي وَمَـطـالـبِـي، فَـعَـلَاقَـتِـي
صَـافٍ مـداهَـا، مِـنْ نَـمِـيـرِ شَـرابِ
لَـكِـنْ ظُـرُوفٌ تَـسْـتَـبِـدُّ مِـرَارًا
تَـجْـثُـو، وإنْ قـاوَمْـتَـهَـا بِـغِـلابِ
أُسْـتَـاذُنَـا عَـلَـمٌ كَـبِـيـرٌ، حَـاز
سَـبْـقًـا مَـدَى عُـمْـرٍ، مَـضَـى فِـي الـدَّابِ
الـشِّـعْـرُ فِـيـهِ إمَـامُ فَـنِّـه، خُـذْ مِـن
مَـنْـثُـورِهِ قَـبَـسَـاتِ فَـصْـلِ خِـطـابِ
الـنّـقْـدُ مَـعْـلَـمُ نَـهْـجِـهِ، والإبْـدَا
عُ سَـبِـيـلُ دَأْبِـهِ، فِـي كَـذَا أَبْـوابِ
لَا تَـغْـفَـلِ الـمَـأْثُـورَ مِـنْ تَـأْلِـيـفِـهِ

هُــوَ مُـكْـثِـرٌ مُـتَـتَـابِـعُ الإِنْـجَـابِ
مُـتَـنَـوِّعٌ إِصْـــدَارُهُ: عَـــدَدًا، فَـنْ
نًـا، مَـنْـهَـجًـا، يَـسْـبِـي ذَوِي الأَلْـبَـابِ
وَمَـجَـالـسُ الـذِّكْـرِ الـمُبِـيـنِ بِـهـا نَجْـ
ـــمٌ؛ قُـــوَّةً وبَـــراعَـــةَ إِعْـــرَابِ
وَتُـرَاثُـنـا، مَـا ضَـنَّ عَـنْـهُ بِـجُـهـدٍ
فَـقَـدِ اسْـتَـفَـادَ بِـوَقْـتِـهِ بِـنَـصَـاب
فِـي كُـلِّ رُكْـنٍ لَا يُـغَـادِرُ فِـعْـلًا
هُـوَ رَائِـدٌ، وَمُـصَـاحِـبٌ لِـسَـحَـابِ
أَنَّـى يَـسِـيـرُ، خَـرَاجُـهُ الـنَّـامِـي يَـأْ
تِـي مُـثْـقَـلًا، يُـغْـرِي لِـمَـلءِ جِـرَابِ
أَأَكُـونُ مُجْحِفَ فَضْلِ مَنْ أَسْدَى لي
خَـيْـرًا كَـثِـيـرًا مِـنْ نَـفِـيسِ لُـبَـابِ
هَـلْ أُحْـسَـبُ الـجَـاحِـدَ إِذ كُـنْـ
ـتُ الـغَـائِـبَ الـمَـحْـرُومَ يَـا أَصْحَابِي
أَنْـتَ الـرَّحِـيـمُ مُـعَـلِّـمِـي، فَـرَجَـاؤُنَـا
صَـفْـحًـا، لَـكُـمْ وَعْـدٌ بِـخَـيْـرِ ثَـوابِ

مسقَط يوم الثّلاثاء: 14 من صفر 1440هـ

23 من أكتوبر 2018م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدكتور محمد صالح ناصر القراري

الشيخ زياد بن طالب المعولي

الثلاثاء 10 ربيع الآخر 1440هـ

18 ديسمبر 2018م

أخونا الدكتور محمد صالح ناصر القراري الجزائري عَرَفتهُ عُمان كاتبًا محققا، وأديبًا شاعرًا، ومحاضرًا باحثًا، فقد شاءت إرادة اللهِ القدير أن يعيش بين أهلها زمنًا، وأن يحظى بلقاء شيوخها وعُلمائها وكُتَّابها وشُعرائها وأساتذتها وطلابها؛ وأن يتعرف على تراثها البعيد عن كثب، فتلتقي الصورة في ذهنه لتكتمل أركانُها بين ماضيها الغابر وحاضرها الماثِل، فكانت لحظة من لحظات القدر كما شاءها الله.

يتميز الدكتور محمد حفظه الله بالأدب الجَّم والعِلم الرصين، مع رغبةٍ ملحة وذهنٍ متوقدٍ للبحثِ والتقصي وتلك لعمري صفات يفتقدها الكثير من الأساتذةِ

والباحثين، فالتصميم على الاطلاع والغوصِ في مكنون المعرفة أمر يمتلك ناصيته أخونا الدكتور حفظه الله، وقد ثبت لنا ذلك بالتجربة والبرهان.

فما أذكره أنه ومن خلال تعاقده للعمل بالتدريس في معهد «القضاء الشرعي» وقت ذاك أسندنا له مواد جديدة لم يسبق له تدريسها وإعدادها؛ إلا أنه بهمته العالية في البحث استطاع بفضل الله أن يصيرها في مادة تعليمية وأن يفي بمتطلبات تدريسها؛ وهكذا أخرج لنا مؤلفات علمية بقيت في متناول الدارسين والباحثين حتى وقتنا هذا.

فالمتصفح لكتابه «منهج الدعوة عند الإباضية» وكذلك مؤلفه عن «الأدب والنصوص» يدرك حجم الجهد الذي بذله الدكتور في جمع المادة العلمية للكتابين، وكيف استطاع أن يبرز تلكم الأعمال في أسلوب تربوي وأدبي قشيب، وأن يجعل ذلك في متناول القارئ والباحث.

إن السنوات العشر التي قضاها الدكتور محمد في عمان كانت حافلة بالعطاء، مفعمة بالذكريات؛ وهي أعوام محفورة في ذاكرة أحبائه وإخوانه من العمانيين، إذ لا يمكن أن ننسى وجوده بيننا، فكم من لقاء توج يومنا، وكم من مجلس ومحفل جمعنا، وكم من نقاش مستفيض استفدنا فيه من رأيه وفكره؛ وكما يقول في مذكراته عن عمان إنها ستكون أحب بلاد الله إليه، فقد أحبته عمان

أيضًا، حيث اقترب إلى وجدان الذين عرفوه من أبنائها وأعجبوا بأسلوبه وحديثه، وحركته ونشاطه، فهو الذي لا يمل جليسُه لقاءه، وقد استمعوا إليه في أحيان كثيرة محاضرًا ومشاركًا في جلسات شعرية ولقاءات علمية فكرية.

ولعله مما ساعد الدكتور في تكوين هذا المحيط من المشايخ والمعارف والأصحاب في عمان؛ تواضعه الجَمُّ وأدبه؛ فغالبًا ما تعلو محياه ابتسامة عند لقاء الآخرين؛ كما أنه منصتٌ جيد مستوعب لما يدور من الحديث والمداخلات، وهذه ميزة تحتسب له، وقد لاحظت خلال فترة وجوده للعمل في المعهد أن عددًا من الإخوة الأدباء والشعراء يأتون إلى مكتبه لعرض قصائدهم عليه قبل نشرها للاستفادة من نصحه وتوجيهه.

ونستطيع القول إن سنوات الدكتور محمد في عمان هي أعوام عامرة بالعطاء سواء في محاضراته مع طلابه أو مشاركاته في تحقيق الكتب بمكتبة السيد محمد البوسعيدي؛ المستشار الديني للسلطان، وكذلك أيضًا مشاركاته المسجلة والمبثوثة عبر الإذاعة العمانية، وأيضًا كتاباته ومساهماته في الصحف والمجلات؛ وهذا مما ساهم في تكوين روابط للاتصال بعمان وأهلها، فقد عرفه الكثيرون واستمعوا لحديثه وقرؤوا له.

وإنني لأذكر بكل اعتزاز جلساتنا المتكررة التي جمعتني بالدكتور سواء في مقر العمل أو في لقاءاتنا العديدة؛ كمثل تلكم التي أشار إليها في مذكراته؛ حيث كانت وقت الإجازة بمزرعة والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمدينة «بركاء» التي أطلق عليها الدكتور اسمًا شعريًا «رياض الأنس»، وكنت أقتنص فرصة هذه اللقاءات للاستفادة من نير فكره في مواضيع شتى منها التاريخية والأدبية، والتربوية والتعليمية، ومن ذلك مثلًا عندما أشار علينا بتدريس كتاب عن الأدب والنصوص في المعهد، وقد اشترك هو بإدراج بعض النصوص الشعرية والنثرية من رصيد المساهمات العمانية عبر التاريخ؛ وهي لحظات فارقة تركت بصمتها على مناهج التدريس بالمعهد في مستقبل المعهد وأجياله العلمية المتعاقبة.

لعلني وفّقت في نقل بعض ما عَلِقَ بذهني عن صديقنا وأستاذنا الدكتور محمد حفظه الله... والله ولي التوفيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حياة الدكتور محمد صالح ناصر، عبر وتجليات

د. محمد صالح حمدي

29 ربيع الثاني 1440هـ

07 جانفي 2019م

مقدمة

إن الإنسان ليعيش صورة زمنية محددة قد تطول وقد تقصر، لكنّ العبرة بما يملأها من أعمال ومنجزات، ومشاركات في بناء صرح الإنسانية؛ فالذين أدركوا قيمة هذا الزمن كرّسوا حياتهم وأوقاتهم في خدمة أفكار وقضايا آمنوا بها، فجاهدوا وضحوا من أجل تجسيدها وبلورتها.

إن الاشادة بمناقب هؤلاء الرجال، وتسجيل أعمالهم وهم أحياء يرزقون، لهو سلوك حضاري ومنهج سليم، فكم غمر الزمنُ شخصيات لامعة وأعلاما أفذاذا لَفَّهُم النسيان على الرغم مما قدموا للإنسانية من عصارة فكرهم وعلمهم، فلم يكتشفهم التاريخ إلا بعد حقب زمنية طويلة؛

فالإشادة بالعلماء والمبدعين وهم على وجه الأرض فكرة رائعة جسدتها مؤسسة «وسام العالم الجزائري»، اكتشف المواطن الجزائري المثقف والعادي بفضلها أنه فعلا يملك قامات من العلماء الراسخين في العلم لهم رصيد وباع وذِكر في مختلف ميادين علوم الحياة الإنسانية والدينية والتقنية.

ومن هؤلاء العلماء الذين قدموا الكثير لميزاب وللجزائر وللعالم الإسلامي، الدكتور محمد ناصر الذي لا يزال في ميدان العطاء يجاهد بقلمه ولسانه، منافحا عن قيم وقضايا الدين والوطن والأمة؛ فهو أديب وشاعر مرهف الحس في فضاء الأدب وأساليبه، وهو أستاذ جامعي لامع يحلل ويشرح فكرة أو ينقد نظرية بأسلوبه ونبرته المتميزة؛ وينشر ويصنف المؤلفات القيمة، وهو شيخ وداعية ومفسر إذ يغوص في آية أو يشرح حديثا نبويا أو يهدي إلى خير.

حياته الأسرية والاجتماعية

من أراد أن يتعرف على شخصية الدكتور محمد ناصر عن قرب فعليه بالعودة إلى كتابه «ذكرياتي ومذكراتي»، الذي لا يُعد ترجمة لمسيرته الذاتية فحسب، بل هو شاهد عيان على رقي الحياة الاجتماعية والثقافية للقرارة ولميزاب، تحت ظل مسيرة الاصلاح. لقد صاغ أديبنا

مذكراته بأسلوبه الشيق المعهود بحيث يملك القارئ ولا ينفك عنه؛ حتى يأتي على فصول كاملة في جلسة واحدة.

و المتأمل في حياته الأسرية يلاحظ أنه لم يكن يقصر اهتمامه على أسرته الصغيرة، زوجته وأبنائه فحسب؛ بل كان يعيش لأسرته الكبيرة «آل ناصر»، ويكِنُّ الود والحب لوالديه وإخوته وبني عمومته؛ يتكفّل بقضاياهم، ويتألم لفراقهم حتى إنه اختير وكيلا على أبناء إخوانه الكبار الذي انتقلوا إلى رحمة الله، يرعاهم ويحفظ أموالهم.

نشأ في أحضان أسرة كريمة، وبيئة علمية ترعى القيم والأخلاق. فتح عينيه على قراءة القرآن وحفظه في أحضان مدرسة الحياة ومعهدها العتيد، وظهرت مواهبه مبكرا فجلب انتباه مشايخه وأعيان عشيرته وبلدته؛ فرُعيت هذه النبتة وحظيت بالعناية والاهتمام حتى تفتقت مواهبه وسطع نجمه؛ فأعطى حياته كلها للعلم، ولم يستسلم لإغراءات المال والتجارة وهو في بداية حياته العلمية؛ وهو الذي نشأ في بيئة تجارية؛ فأبوه وإخوته الكبار كلهم تجار. كما لم تفْتنه المناصب السياسية والرتب السامية، ولم تثنه عن منهج حياته وأهدافه وهو في عز عطائه.

معرفتي بأستاذي وشيخي الدكتور محمد ناصر:

عرفت الدكتور ناصر ـ وأنا طالب بمعهد الحياة ـ

حيث عاد من القاهرة ،كنانة العلم، أستاذا ومربيا وقدوة، وإن لم أحظ بالتتلمذ عليه والجلوس إليه؛ إذ كان يدرّس الطبقات العليا، وكنت لا أزال في المستوى المتوسط، أمني النفس أن أحظى بذلك بعد ترقيتي في سلم الطبقات، غير أن أملي لم يتحقق لأنه غادر معهد الحياة إلى الجزائر لإكمال دراسته العليا؛ ولقد ترك بصمات عميقة في نفسي وفي طلبته وفي الجو العلمي والأدبي للمعهد، وإليه يعود الفضل في بعث الروح العلمية والمنافسة بين الطلبة؛ ومثال ذلك إنشاء المجلات الحائطية التي كان الطلبة يتبارون من خلالها في صقل مواهبهم وترقية مداركهم؛ غير أنه بقي على اتصال دائم بالمعهد ومشايخه وطلبته يقدم الاستشارة ويحيي الندوات الأدبية ويرافق الطلبة ويوجههم.

خصائص أستاذي محمد ناصر

يتمتع أستاذنا بخصائص جعلته موضع احترام وإكبار عند كل من عرفه وعاشره عن قرب أو قرأ عنه أو استمع إليه.

أولا: من خصائصه التي قلما تجتمع عند الرجال، أن جمع بين صفات الشخصية العلمية والمنهجية الصارمة من جهة، وبين شخصية الأديب الشاعر الذي يهوى الفن ويقرض الشعر الملتزم الهادف، بمختلف أغراضه وأوزانه

ويرتع من معين الأدب الرفيع. وأحسب أنه قلما تجتمع الخاصتين في إنسان واحد؛ ذلك أن الشاعر والأديب يهوى الخيال، ويتغنى للجمال، وأن العالم المحقق يتمسك بالدقة ويلتزم الحقيقة والمنطق، ويبقى الواصف حائرا كيف جمع أستاذنا هذه الخصائص على الرغم من تباينها.

ثانيا: من خصائصه أنه كان يؤمن بسنة التداول وسنة التغيير وتعاقب الأجيال والتكامل بين حكمة الشيوخ وطموح الشباب؛ من أجل تشجيع الطاقات الفتية وإعطاءهم المشعل لقيادة الأمة؛ حتى لا تبقى حكرا على الشيوخ، وكان يرفع شعار: «دعوا الورود تتفتح»؛ مما يعني إتاحة الفرصة للشباب لتفتيق مواهبهم، ولطالما عانت المؤسسات العرفية والرسمية من تشبث البعض بالمناصب وهم في أرذل العمر، حين يعتقدون أنهم لو تركوا مناصبهم انهارت تلكم المؤسسات.

و قد آمن شيخنا بوجوب التداول في مسيرته العملية ونشاطه في نهضة أمته؛ حيث كان له الفضل الأوفر واليد الطولى في إنشاء مؤسستين علميتين، وهما جمعية التراث وكلية المنار للدراسات الإسلامية، مع كوكبة من الرجال المخلصين العاملين، لكن لما أحس بالضعف الجسدي والانشغال الذهني سلّم المشعل بكل سلاسة وطواعية لأبنائه وإخوانه وبقي مستشارا ومرجعا لكلا المؤسستين،

وهو يرى استمراريتهما وتطورهما بيد الجيل الثاني، وهو قرير العين بأن البذور التي ألقاها في أرض طيبة توتي أكلها بإذن ربها، بين أيادي أمينة تحضنها وترعاها.

ثالثا: ومن صفاته البارزة أنه كان وفيا لمشايخه الذين ربوه وتأثر بهم، فقد احتفظ بعلاقاته بهم طول حياتهم يراسلهم ويزورهم، ويقيم ندوات ومحاضرات عن حياتهم وآثارهم العلمية والاجتماعية، وينسج شهادات عنهم ومصنفات غدت مرجعا في تراجمهم وفي نشاطهم الاصلاحي والتربوي، ويشهد له كتاب «مشايخي كما عرفتهم» على الوفاء الجليل والاعتراف بالجميل؛ فإليه يعود الفضل في إبراز أعمال تلك الثلة من المشايخ.

رابعا: ومما يتميز به الدكتور صبره الجميل، وقد ابتلي في صحته لما أصيب بالعجز الكلوي، فتحمله صابرا محتسبا أجره عند الله، ولم يستسلم ولم يجزع؛ بل لاقى المحنة مطمئنا راضيا مسلما أمره لله الكريم، وفي وضعية نفسية عالية، ولا يحس زائره أنه مع مريض يعاني من مرض مزمن، بل هو في مجلس علمي تعرض فيه القضايا الفكرية والتاريخية والأدبية؛ وهو لا يشكي أبدا معاناته، بخاصة مع آلة التصفية التي يتردد عليها ثلاث مرات في الأسبوع، وهو في هذا المقام يتأسى بأستاذه وشيخه أبي اليقظان لما أصيب في شيخوخته بالشلل النصفي، فبقي يكافح بقلمه

ولم يعِر اهتماما لمرضه إلى أن لقي ربه.

خاتمة

إن الدكتور محمد ناصر قد رسم خط حياته واضحا بينا، وسخر علمه ومواهبه وقلمه في خدمة قضايا دينه ووطنه وأمته: تدريسا وتأليفا؛ وهو لا يزال ولن يزال وفيا لمبادئه، مؤمنا إيمانا راسخا أن حياة الإنسان كلها كفاح وجهاد، وأروع عنوان لهذا المعنى كتابه: «أبو اليقظان وجهاد الكلمة».

بسم الله الرحمن الرحيم

قصيدة: النصر الميمون[1]

د. مصطفى بن صالح باجو

القصيدة تكريم للأستاذين الكبيرين، الدكتور محمد ناصر، والدكتور جمال ميموني، بمناسبة منحهما وسام العالم الجزائري، من قِبل معهد المناهج، بالجزائر، يوم الخميس 24 جمادى الأولى 1429هـ/29 ماي 2008م.

جيادَ النصر بالأفراح عودي
وسحْبَ الخير بالبركاتِ جُودي
عروسُ العلم أزهرَ في ابتهاج
وفجرُ النور أشرقَ بالنشيد
لذيذ العيش يفنى بعد حين
وزاد الكتب يبقى للخلود

(1) منشورة في موقع مؤسسة وسام العالم الجزائري:
http://algerianscholaraward.org

وأهـــل الـحـــزم دهـــرهـــمُ سـبـاق
وأنـعـم بـالـسـبـاق إلـى الـخـلـود[1]

إذا مـا الـلـيـل أظـلـم نـــوّروه
فـأطـفـأ نـورهُـم نـــارَ الـوقـود
أطـــار الـهـــمّ نـومـهـم فـقـامـوا
وخـالـي الـهـمّ يـقـضـي فـي الـرقـود
وتـمـضـي رحـلـة الأعـــوام وَمْـضًـا
ويـفـــرُق بـيـنـنـا فـضـل الـجـهـود
ويـسـمـو الـسـامـقـون إلـى فـضـاء
ويـشـقـى الـقـابـعـون عـلـى الـسـفـود
ويُـعـلـي الـمـاجـدون أثـيـل مجد
وحـــظ الأشـقـيـا لـعـن الـجـدود

* * * * *

عـوالـي الـعـلـم فـي الـدنـيـا غـوانٍ
وتُـرضَـى الـغـيـدُ بـالـعـقـد الـنـضـيـد
ومـهـر الـعـلـم تَـسْـيَـار ونـأيٌ
عـن الأوطـــان والـعـيـش الـرغـيـد
ويـمـضـي الـنـأي صـبـرا واشـتـيـاقـا

(1) الخلود الأولى بمعنى البقاء، والخلود الثانية هي جنة الخلد.

ويـأتـي الـفـجـر رقـــراق الـــورود
وبـعـــد الـــصـــوم إفـــطـــارٌ وعـيـدٌ
وبـــربـــوشَـــا[1] ألـــذُّ مـــن الـثـريـد

* * * * *

مـحـضـتَ الـعـلـمَ أنـفـاسًـا تـوالـتْ
فـأثـمـرَ سـعـيُـكـم أوفـــى رصـيـد[2]
وهـبْـتَ الـوطْـنَ فـكـرا جـلَّ قـدرا
وأنـشـدتـم لـه عـــذب الـنـشـيـد
تـــأذّن لـلـفـدا وطـــن فـأزجـى
لـه بـيـوضُ أشـــرافَ الـجـنـود[3]
بـــروض الـمـعـهـد الـمـعـمـور روَّى
أصـيـل الـفـكـرِ والأدبِ الـرشـيـد[4]

(1) بربوشا هو اللقب الذي تعرف به عائلة الدكتور محمد ناصر، كناية عن الكرم وقرى الضيوف بالبربوشا، وهو نوع رفيع من الكسكسي في الجزائر.

(2) إشارة إلى مؤلفات الدكتور محمد ناصر وبحوثه التي تجاوزت المائة. فضلا عن دواوينه الشعرية، وباقات الأناشيد الساحرة، وكان ينشدها بلحنه الندي.

(3) الشيخ إبراهيم بيوض رائد الحركة الإصلاحية الحديثة بجنوب الجزائر، مؤسس معهد الحياة بالقرارة سنة 1925 ولا يزال إلى اليوم يبني رجال الجزائر والإسلام.

(4) دراسة الدكتور محمد ناصر في معهد الحياة في خمسينيات القرن العشرين.

وأوفى الجيلَ خلقًا طاب شَهْدًا
زكَا أصلاً وفعلاً كالبُرود
وحثّ الخطو يبتدر انعتاقا
فأشرق فجره ملء السعود
وأسرج بالطموح إلى المعالي
يؤمّ النجم في عزم أكيد
إلى ربع الكنانة أمَّ نيلا
شفاءُ عليله عند الورود[1]
وأدرك في رباها نبعَ علم
فعبّ من المعين بلا حدود

* * * * *

وقالوا في الكنانة كلُّ فضلٍ
وسبقٍ في قديمٍ أو جديد
فغشّى عجبُهمْ صحُفًا توالت
تقارع في الجزائر في صمود[2]

(1) إشارة إلى مواصلته دراسته الجامعية بالقاهرة، والنيل نهرها، وفي البيت إشارة إلى موسوعة الفقه للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش «**شرح النيل وشفاء العليل**».

(2) يذكر الدكتور محمد ناصر أن سبب اتجاهه للبحث في الصحافة الوطنية أيام الاستعمار ما سمعه من أحد أساتذته بمصر من جهل مطبق وإنكار لوجود =

أثـــار حـفـيـظـة، وأثـــار عـزمـا،
فـأثـمـر وخـــزُهـــم طـيـب الـجـهـود
سـلـوا مـجـدَ الـصـحـافـة عـن جـهـادٍ
جـهـادِ أشـــاوسٍ غُـــرَرِ الـوجـود
أبـــو الـيـقـظـانَ فـارسُـهـا مـضـاءً
وكـــان لأهـلـهـا أسـمـى عـمـيـد[1]
مـقـالـة صـحـفـه صـفـعـت جَـحـودا
وأيـقـظ صـفـعُـهـا هِـمـمَ الـرّقـود
نـظـمـتـمْ مـــن لآلـئـهـا عـقـودًا
فـرصّـع جـيـدَكـم عـهـدُ الـجـدود

* * * * *

وفـي روض الـجـمـال بـشـيـرُ يـمـنٍ
سـمـا بـالـنـشء مـيـمـون الـجـهـود[2]

= صحافة عربية بالجزائر. فكان ذلك سببا لكشف كنوز هذا الجهاد المقدس بالكلمة الطيبة في أحلك ليالي الاستعمار.

(1) أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، عميد الصحافيين الجزائريين، أنشأ ثماني جرائد عربية وأدها الاستعمار الفرنسي تباعا. وأنجز الدكتور محمد ناصر حولها دراسات علمية قيمة، منها كتابه «أبو اليقظان وجهاد الكلمة».

(2) إشارة إلى الدكتور جمال ميموني، دكتور في الفيزياء من الولايات المتحدة، =

أقـــام مـــن الـفـضـاء كـتـاب هـــدي
يـــقـــود الـجـيـل لـلـنـهـج الـسـديـد
وصـــدّ مـزالـقًـا وصَـــمَـــت فـهـومًـا
وحـــــذّر مـــن جـحـود أو جـمـود
وأيـــنـــع فـــي الـشـبـاب ثـمـارَ وعْـــيٍ
فـــعـــادَ لـنـبـعـه بـعـد الـشُّـــرود
وفـــي لـيـل الـشـكـوك ســرى هـلالا
يـقـيـم الـصـوم مـتـضـح الـشـهـود[1]
إلـــى الإنـــصـــاف يـهـدي فـــي أنـــاة
وإن وصـمـوا الـمـسـاعـيَ بـالـجـحـود

* * * * *

وبـــسّـــط تـقـنـيـاتٍ عـقّـدوهـا
لـنـلـهـث خـلـفـهـم طـــوعَ الـعـبـيـد
ويـــسّـــر كـنـهـهـا ذُلُـــــلاً لـنـشء
فـــأمَّ رحـابـهـا، حـتَّـى الـولـيـدِ
ونـــــادى لـلـفـضـاء ألا هـلـمّـوا

= وأستاذ بجامعة منتوري، قسنطينة.

(1) في بداية كل رمضان، يحتد الجدل حول إثبات الهلال، ويكون للدكتور رأي سديد في الموضوع.

فـوعـي الـكـون مـفـتـاح الـشـهـود[1]
رحـيـب الـكـون آيـاتٌ عُـجـابٌ
وفـي الـفـيـزيـاء أسـرار الـوجـود
ومـن رام الـهـدى بـدجـى الـلـيـالـي
فـفـي «الـشـعـرى» غـنـاء الـمـسـتـزيـد[2]

* * * * *

عـشـقـنـا الـعـلـم أخـلاقـا تـسـامـت
تـحـيـل الـعـيـش جـنـاتِ الـورود
وبـئـس الـعـلـم طـغـيـانـا تـمـادى
يـصـفّـد روحَـنـا بِـهَـوَى الـقـيـود
«تَـدَرْوَنَ»[3] عـصـرُنـا عـبثًـا ومـسـخًـا
فـوا أسـفـى عـلـى عـصـر الـقـرود

(1) إشارة إلى مشروع القبة الفلكية التي سعى لإنشائها بجامعة الأمير عبد القادر في سنينها الأولى لربط علوم الشريعة بعلوم الكون والحياة، ثم أُجهض المشروع بين جاهل غرير، وماكر خطير.

(2) جمعية «الشعرى» لعلم الفلك، التي أنشأها الدكتور، واستقطبت طاقات شبانية علمية واعدة، ولها نشاط طيب وطنيا ودوليا، وحازت شهادات قيمة في منتديات علمية عالمية.

(3) نسبة إلى «داروين» صاحب كتاب «أصل الأنواع»، ونظريته أن «أصل الإنسان قرد» . ولها أثرها الخطير على علوم إنسانية عديدة، وإن اتضح للمنصفين بعد ذلك تهافت هذه النظرية.

«تَـفَـرْوَدَ»[1] فكره شبَقًا، سُعارًا،
ووأدَ فضائلٍ، كيدَ اليهود
وقالوا للثقافة ألفُ لونٍ
جديد، فانفروا نحو الجديد
حداثتنا فضاءٌ للمعاني
طليقُ القيدِ في الأفق البعيد
بحور الشعر قيدٌ غلَّ معنًى
وأفضل وِردهم غزل النهود
أصيلُ الفكر عندهمُ دخيلٌ
وغاية سعيهم رشُّ المبيد[2]

* * * * *

لكَم ملأوا الفضاء ضجيجَ زعمٍ
وُعُودًا بالنعيم وبالسعود
فوَلَّوْا يَخصفُونَ على قبيحٍ
من السَّوْءَاتِ، من كذِب الوعود

(1) مشتق من «فْرُويْد»، صاحب التفسير الجنسي للسلوك البشري. وعلى تفسيره قامت مدارس أدبية وفنية وفكرية ونفسية غزت العالم الحديث.

(2) يتضايقون من الفكر الإسلامي الأصيل، ويرون أهله حشرات ضارة جزاؤها الإبادة بكل حيلة ووسيلة.

وخـيّـب ظـنـهـمْ إبـلـيـس لـمّـا
رأى جـنـدَ الـهـدى صُـدُقَ الـعـهـود
فـلـلإسـلام جـنـد لـيـس يـغـفـو،
وإن غـدروا فـربـك بـالـوعـيـد
جـيـادَ الـنـصـر لـلأوطـان عـودي
بـعـزة ربّـنـا، لا، لـن تـبـيـدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رسالة مفتوحة إلى «الدكتور محمد ناصر»...

د. طه كوزي

02 جمادى الثانية 1440هـ

07 فيفري 2019م

في غرفتي المكتظة المزدحمة؛ في ذلك العالم الصغير المشحون بالآمال والطموحات والأماني والمخططات وأنا لا أزال فتى في عمر الثانوية؛ كانت تلك الغرفة مأواي وملاذي، معتكفي وفرن أحلامي ومطبخ أفكاري... كانت الغرفة تغصّ بالمتناقضات من كتب، ومجلات، وأطنان من الأوراق الطائرة التي لم أجد الوقت لتدوينها على كُرّاسي، وقصاصات زاحفة من الرسائل المشاغبة مع أقراني...

كان قنديل الغرفة يُسْرَج كلّ سحَر على الثالثة، فترْتسم أشعّة السراج الكهْربائي الأصْفر على بلاط بهْو منزلنا البستاني، بين آية قرآنية أحفظها، ومذاكرة دراسية التزمتها طوعا وكرها، فيتسارع يومي ويتسرّب الزمن من بين

أصابعي، فتهرول عقارب الساعة عجولة لاهثة تلتهم يومي في سباق محموم بين درس أراجعه، ومعلم قرآن يراجعني، وامتحان كتابي يترصدني، لينتهي بي يومي منهكا خائر القوى في زمن مدرسي بيداغوجي دائري كئيب؛ فأعود بعد ذلك إلى عالمي الصغير ـ غرفتي ـ حيث أرتب أفكاري، وأسوس دولتي، أخاطب شعبي، وأختبر طبقات الصوت بألحاني وأشجاني...

من طقوس النوم عندي أنني لا أخلد إلى النوم إلا وكتابٌ يسامرني، ويشاركني فراشي، ويُقاسمني مخدّتي، ولا أذكر ليلة أطفأت فيها نور الغرفة بنفْسي، فغالبا ما أستسْلم للرُقاد والكتاب يغطّي وجهي وجبهتي، فغدا إطفاء النور مهمّة الوالدة كل ليلة، بعد أن يئسَت وبُحّ صوتها من تنبيهي وزجْري وتأْديبي ألا أُغمض جفني إلا وقد أطفأت نور غرفتي... ولكن هيهات فالطقوس أقدس عندي...

من الكتب التي عمّرتْ طويلا تحت وسادتي، وخففت عني سُهادي، وشاركتني غفوتي: قمطرٌ عليه صورة «مفدي زكريا»، وشامة الغلاف اسمٌ عنوانُه: «محمّد ناصر»، ولم أكن أعْرف من اسم الرجل إلا رسْمه، أما النزْر اليسير من المعلومات عنه فكان عبر خالي الشاعر الأستاذ «سليمان دواق» الذي اتخذ الدكتور «محمد ناصر» قدوة وأسوة... ولم يكن في دائرة المتوقع عندي أن تجمعني الأقْدار بمن

في طينته، وعلُو قدْره، وسماحة نفسه...

بعد حوْلين كاملين، ها أنا أتأبط مطاريّتي مبلولٌ من هامتي إلى أخْمص قدَمي؛ بعد أن هرولتُ لِبُرهة من الزمن تحت غيث هامر أبحث عن موقع بيت الدكتور محمد ناصر في شارع «مليكة قايد» بالأبيار، وأنا حريص أن أبلغ الموعد في ميقاته، لكنني لم أجد ضالتي، وبمجرد أن فتح الباب ورآني على تلكم الحال: بادَرني قائلا بلسان ميزابي مُبين: «مرحْبا؛ تْلاكيدْ اتْشَخْشَخَدْ»... دخلتُ حرمه، وولجتُ مكتبه ومعتكفه المطل على شرفات «الأبيار» فزكم أنفي عنبرا وطيبا، وامتلأ قلبي حبورا وطيبة... فبتُّ أزنُ اللفظة، وأقيس العبارة علّي أخطئ المعنى، أو أُجانب الصواب فقد نبّهني بعضهم أن الدكتور «محمد ناصر» جاد وصارم فاحذر أن تخالف عن أمره، أو تختبر صبره وتستنفذ شيئا من حلمه... إلا أنني بعد ساعات بل دقائق، وجدت نفسي بين يدي عالم رباني حليم، وفي أحضان أب يفيض أدبا وحنانا... فسفهت قولتهم، إذ لم أجد تلك التحذيرات إلا وهْمًا وأضغاثا...

لكن مهلا! ما الذي أفعله هنا، وما الذي رفعني هذا المقام لأجالس هذا الأديب الأريب؟!

ببساطة، فقد سألني أستاذي الدكتور محمد باباعمي، وقد التحقت للتوّ بمدرسة الثقافة الجديدة، ومكتب

الدراسات العلمية، في بهو منزله بالحميز وسألني في عجل: الدكتور «محمد ناصر» بصدد إصدار أعماله الأدبية الكاملة ونحن في حاجة لمن يتولى الأمر؛ فهل تعرف التصفيف والرقن؟ فقلتُ في تردُّد جوّاني، ويقين برّاني: نعم أعرف، وأنا الذي لم يرقن كتيبا في حياته، فكيف يشتغل على مشروع محوري مثل «الأعمال الكاملة» للدكتور «محمد ناصر». فحين أجبْته واستجبْت له لم يكن المطلوب عندي أن أصفّف هذا العمل الأدبي بقدْر ما أحسسْت أنّ رجائي بمجاورة عالِم مثل الدكتور «ناصر»، وأديبٍ في سنخه، ومؤرخ متبصر من طينته هي أقصى ما أرجوه وأرنو إليه...

ومن الطريف، ومن الملتقيات القدرية: أني اكتشفت بعد سنوات أن علاقة أستاذي الدكتور محمد باباعمي بأستاذه الأديب الدكتور ناصر بدأت بمشهد مماثل قبل ذلك بعقود: فقد سأله هل تعرف الرقْن والتصفيف ليستعين به في عمل علمي؛ فقال «نعم» وهو حينها لا يعْلم! وإنّي على يقين اليوم أنّ طالب العلم إن لم يسلك هذه الطريق، وما لم يُثْنِ رُكبته بين يديْ عالِم، وما لم يُحْنِ رقبته في حضْرة مُرَبٍ، وما لم يتبعْه طلبًا للرُشد والترْشيد فإنه لا محالة محْروم من العلم، مخْرومٌ من الحِلم ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف:66-67].

في العالم الداخلي للدكتور «محمد ناصر»، وفي مكتبته الكبرى وفي صالون بيته حيث عُودُ العنبر العماني، والبخُور الميزابي، وسجادة الصلاة المبْلولة بدمْعه، ومكتبُه الذي رافقه ولازمه في حِلّه وصبَر على تِرْحاله وأسفاره، أجلس على فراش صوف من فروةٍ ناصعةِ البياض، فنرابط الساعتين والثلاث، سويا، نعيد ترتيب آثاره الأدبية من قصائد مبثوثة في كتبه وأعماله، وأخرى مكتنزة في أرشيفه، وأخرى في ثنايا مذكراته...

بعد أمد اكتملت صورة الدواوين، وانتظمت أوزانها، وسلِمت قافيتها ورويها في أرشيف بعضه مطبوع، وشطره مخطوط، فارتسمت ملامح الأعمال الكاملة من ديوان يرسُم ملامح الصبا بريشة أدبية راقية «أغنيات النخيل»، وقطْعة أدبية نفيسة ترفُل بالنفْس إلى عالم الملكوت «في رحاب الله»، وآخر قطعة من كبده، ووشيجة من قلبه: «جَنان صادق» و«خافق صادق» يعلن حبه في الله وبغضه فيه دون تورية أو مواربة... أما «ألحانه وأشجانه» فهي عطر الديوان ومسكه، وذكرياته التي تأخذك في رحلة أدبية عزّ نظيرُها فتدْمع عينك وهو يكاتب ولده، ويراسل أستاذه، ويزن أمته في ميزان التدافع الحضاري بين الهلال والصليب... وإني إلى اليوم حين أدخل صالونه الأدبي أمرر عيني، كخاطب مبتدئ، على أرفف مكتبته لأرمق ذلك

الأرشيف الذي نضدناه ونظمناه، لأستعيد تلك الذكريات، وأسترجع تلك اللحظات...

اتفقنا على أن يكون اللقاء كل أسبوع مرتين، فانتظمتْ زياراتي إلى ربوع «مليكة قايد»، وأضحى قلبي معلَّقا بلقائه ساعة نهارا، وحينا عصرا، وكلما جالسته عرضتُ عليه ما صفَفْت ورقنْت، فينهال عليها بقلمه الأحمر تصويبا وتدقيقا لميزان أدبي في أذنه قويم، وإيقاع صوتي في قلبه طريس... وكلما حانت ساعة الشاي استطرد في قراءاته الأدبية وعادت بذاكرته بعض القصائد إلى أيام عصيبة وأخرى منفرجة مبتسمة... لقد كان صالونه مقصد الحجاج، ومزار الزهاد والنساك؛ وكم تعرفتُ على وجوه نضرة بعضها لقيت ربها، وكثير منها ينتظر؛ منهم الدكتور العساكر محمد الخبير القانوني، ومنهم الدكتور محمد عيسى او موسى، عليه رحمة الله...

في لحظة استدار فيها الزمن، عندي، فحجبني طارئ عن لقائه والجلوس إليه أمدا غير يسير، تواعدنا على اللقاء صبيحة الأحد على العاشرة كالمعتاد، لكن هاتفا قدَريًّا بعد «صلاة الجمعة» هزني: «ألو، والدك في الاستعْجالات، وهو في غيبوبة بعد حادث سير...» تعطلتْ الساعة في يدي، وتكلسَتْ كل مواعيدي، وهجرْت الجامعة والمجامع لأشهر عدة بين مشفى ومستشفى، أطلب الطبيب وأبغي

التطبيب...

لقد كانت تلك أخطر محطة في مسيرتي، خضتُ خلالها أعسر الاختبارات في حياتي؛ وتمايز في ناظري القريب والبعيد، وتزايل أمام مرآي القاصي والقصي... بحمد الله، فبعد أمد اجتزت الامتحان والاختبار، ولا أعلم هل كسبت الرهان؟ إلا أن ما لا أنساه أن تلك المرحلة حجبت عني عالما أديبا: اسمه الدكتور «محمد ناصر»...

لست من جيل تلاميذ «الدكتور ناصر» سنا ولا كفؤًا، فأنا أُحْسَب من أحفاده وأسْباطه انتسابا وعلْما؛ لكنني فزت بالقُرب منه والجلوس إليه امتيازا، فلا تكاد ترى إنسانا أكثر منه حِسًّا، وحساسيةً، ورهافةً، ولا تكاد تجد أرضى منه بقضاء الله وقسمته صحة ومرضا، غنى وفقرا، قوامة وعجزا...

لا تزال إلى اليوم منقوشة في ذاكرتي تلك القصائد التي حبكها ونظمها ويده اليسرى ممدودة إلى آلة تصفية الدم، لقد أدّبني على الإخلاص لفكرتي، وعلمني الفناء من أجل مبدئي ورايتي... لقد علمني الدكتور ناصر كيف ينغمس الأحرار في الفكرة، وكيف يحيا الأشراف ويموتون من أجل القضية، فالدكتور لم ينتسب إلى الحركة الإصلاحية زورا، ولم يتدثرها عمامة أو عباءة، لقد كان إصلاح الأمة دما ساريا في عروقه، وسيالة عصبية في جملته العصبية،

ويخضورا في مسامات جسمه وبدنه لا يرضى بها بديلا، ولا يقنع بغيرها قرينا أو رفيقا...

إنه في سند الإصلاح عالي الإسناد: فإن اختصرت سلسلة الذهب في الرواية عن فكرة الإصلاح: فقل: الدكتور «محمد ناصر» عن الشيخ «شريفي عدون» عن الشيخ «إبراهيم بيوض»، وإن أردت الرواية عن الوطنية والإباء والثورية فقل الدكتور محمد ناصر عن «مفدي زكريا»، فحديثه عن مقام أولئك الأمجاد متصل مرفوع لا موقوف ولا مقطوع...

لقد رضعْتُ من فكره، وقصيده فكرة المقاومة والثبات على المبدأ، وتعطرتُ في جواره بمسك الأدب ورهافة الحس، واصطبغت بمجالسته من يخضور الملحة والحكمة والطرفة، وتنفسَتْ بمجالسته أوردتي وشراييني قضايا الأمة قبل هموم «الحومة»، وتلظّى فؤادي بهمّ الوطن فاتسع الأفْق أمام ناظريّ، وانبلجتْ أسارير الكون أمام عينيّ؛ حين قال لي بعد أن علم أني أجيد شيئا من «لغة موليير وشكسبير»: أنا أرى فيك ملامح «النامي»، وأحمّلك خلافة «خليفة النامي»، وأحملْك على أن تسلك طريقه نحو الكونية بعلم وحلم وأناة...

لا أعرف اليوم هل حققت رجاءه أم خيبتُ ظنه؟ فقد قصُرت عن رؤياه، وما وسعني إنفاذ رؤيته؛ لكنني أنسُب

نفْسي إلى نفَسه، وأغرس شجرتي في تربته، وأنسب ثمرتي إلى سُقياه وبذرته، وإني أقول له: سيدي وأستاذي: تقبلْني صدقة جارية من بعدك، وكلمة حق في صحيفتك، وحصْن إصلاح وترشيد وتربية في جيشك وخميسك...

من صدقة جارية لك، وولد لعله صالح يدعو لك، اسمه:
طه كوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرياتي مع أبي محمد بن صالح

أبو اليقظان بن محمد بن صالح ناصر

20 ربيع الثاني 1440هـ

29 ديسمبر 2018م

ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه الكلمات بعدما طلب مني الأخ الكريم الدكتور محمد بن موسى باباعمي أن أكتب عن والدي ما أعرفه، ترددت لأسباب أولها أن المهمة أنيطت لغير صاحبها، والثانية وهي أني أكتب عن والدي، فمهما كتبت عنه فإني لن أوفيَّه حقه؛ ولربما غمطته قدره فكان ذلك ضربا من العقوق؛ وكذلك ترددت لأنني سأشارك في كتاب بمقالتي لكاتب متمرس وأستاذ كبير، ربما كانت مشاركتي هذه نكتة سوداء تفسد جمال هذا السفر.

لكن الواجب عليَّ أن أدلو بدلوي مهما كان، فاستعنت بالله وبدأت في نسج كلامي..

ذكرياتي مع أبي محمد بن صالح ناصر (كما يحلو له أن ينادى به دون ذكر الدال)

في الطفولة كانت ومضات جميلة عالقة في الذاكرة لم تكن بالكثيرة؛ لأنه كان يعتكف في محرابه (مكتبه) طوال الوقت بعد الدوام الجامعي أو أوقات الفراغ؛ فلا ثانية ولا دقيقة تمر عليه دون حلبها واستخراج ما فيها، فمكتبه قريب من ملعبنا (رواق المنزل) وكنا نحن الصبية لا نسمع سوى صرير قلمه الذي لا يكل ولا يمل تحت الضوء الأصفر الخافت، تحيط به الكتب والملفات، فكان يعشق الأرشفة وتدوين كل شيء من الرسائل المهمة إلى أبسط الوُصولات والقصاصات، فكثيرا ما نزعجه بلعبنا والفوضى التي نثيرها فيتركنا على سجيتنا وبساطتنا، وقليلا ما يخرج إلى عالمنا لفض نزاع أو فك خصومة أو شجار، فلا تسنح لنا الفرصة لمجالسته سوى على مأدبة العشاء، بعدها يأوي كل إلى دروسه أو مطالعاته، فالبيت مملوء بالقصص والكتب، والتلفزة ممنوعة بعد العشاء إلا يوم الخميس والجمعة اللذين كنا نترقبهما بكل شوق؛ أما لقاؤنا بوالدنا فلا يكون عادة إلا في الجمعات حيث النزهات أو في العطل الدراسية.

والدي قليل الكلام، له هَيبة ووقار حباه الله بهما، فبالنظرة يتكلم، وإذا تكلم أوجز، وإذا نوى أنجز؛ كثير

العمل، قليل الملل؛ ينفر من التسوق والخروج لغير حاجة، وهو قدوتنا بالحال عوضا عن المقال.

تقربت من والدي أكثر في سلطنة عمان حيث انفردت بأبوته، وهناك أدركت قيمته حقا؛ وعرفت سجاياه الخُلقية والعلمية والأدبية؛ ثم كان لتدريسه لي في معهد القضاء الشرعي الأثر الكبير، وهكذا صار معلما لي وموجها بعد أن كان مربيا لي ووالدا.

رافقته في بعض رحلاته، واحتككت به، وجلست بجواره مع جلسائه، فأدركت قيمته بعد أن كنت أجهلها، فقد كان في عيني أبا يكد من أجلنا فحسب؛ لكني وجدته يحمل هموما كثيرة لأجل أمته ووطنه؛ لأنه يُنكر ذاته فلا تسمعه يتحدث عن نفسه أو عن أعماله ومشاريعه إلا لماما، يُفكر حين يفكر بصمت، وينجز حين يُنجز بإتقان، أسرني بخصلتين بعد تقوى الله وخشيته: تواضعه الذي لا أجد له وصفا، وصبرُه الجميل الذي لم أجد له مثيلا.

أكْبرُ فيه جِدَّه الذي لا ينثني، وهو الذي لا يسأم من الاستزادة والتعلم؛ فالكتاب رفيقه الدائم، وأجلّ الكتب كتاب الله.

دوما أشبهه بالنخلة الشماء، جذور مستقرة متغلغلة في أعماق الأرض أصالة ووفاء، شموخ لا تزعزعه المحن وإن

كثرت، كلما خبرته في علم أغدقك بالمعارف والتجارب؛ وله شتى المواهب فهو أديب وشاعر وناقد، عاشق للطبيعة والجمال، فنان يطرب للصوت الجميل سواء تلاوة أم إنشادا، رياضي، مهندس، اقتصادي، خبير؛ محنّك في حل المشكلات وفض الخصومات، رأيه سديد، يمقت التعصب والتصلب، يحب التجديد المتأصل، يشجع على الإبداع وتحيين العطاء..

إن الوصف ليطول وإن الحديث في شأنه لا ينقطع؛ وما على القارئ الخريت سوى مطالعة «ذكرياتي ومذكراتي»، وإني لأعتذر إلى القرّاء الكرام فلقد فارقت القلم منذ أيام الدراسة قبل عشرين عاما، والعذر عند كرام الناس مقبول.

ترجمة مختصرة للدكتور محمد ناصر

أ. د. **محمد صالح ناصر** من مواليد القرارة، ولاية غرداية، الجزائر، يوم: 13 رمضان 1357هـ الموافق لـ: 6 نوفمبر 1938م.

باحث، أديب وشاعر، حفظ القرآن الكريم سنة 1954م، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين... من شيوخ وعلماء بارزين في الحركة الإصلاحية.

- متحصل على شهادة التعليم الثانوي من معهد الحياة بالقرارة في جوان 1959م.
- شهادة الليسانس في الأدب العربي من جامعة القاهرة جوان 1966م.
- شهادة دكتوراه حلقة ثالثة من جامعة الجزائر في جوان 1972م.
- شهادة دكتوراه دولة من جامعة الجزائر في أكتوبر 1983م.
- جائزة الدولة التقديرية في النقد والأدب والشعر سنة 1984م.

- تكريم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سنة 2017م.
- تكريم أكاديمي من جامعة غرداية، سنة 2018م.

مراحل التدريس:

- درّس في الطور الابتدائي بمدرسة الحياة ـ القرارة، ثلاث سنوات (1959-1962م).
- درّس في الطور الثانوي بمعهد الحياة ـ القرارة، خمس سنوات (1966-1971م).
- معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، عشرين سنة (1971-1991م).
- معهد العلوم الشرعية، مسقط، سلطنة عمان عشر سنوات (1991-2002م).
- كلية المنار للدراسات الإسلامية، الجزائر، أربع سنوات (2004-2008م).

مواد درّسها:

1. بمعهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر:

الأدب الجاهلي، الأدب الإسلامي، الأدب العباسي ـ نظريا وتطبيقيا ـ الأدب الجزائري الحديث، التيارات الأدبية الحديثة، منهجية البحث (قسم الدراسات العليا).

2. بمعهد العلوم الشرعية، سلطنة عمان:

الحضارة الإسلامية، أعلام الفكر في عمان، منهجية الدعوة عند الإباضية، منهجية البحث وتحقيق النصوص، كيف تحلل نصا حديثيا، شعريا، فكريا.

3. بكلية المنار للدراسات الإسلامية، الجزائر:

منهجية البحث، التفسير الموضوعي، التفسير التحليلي، التفسير البياني، منهجية الدعوة عند الإباضية.

الوظائف العلمية والإدارية ما بين (1983-2008):

- عضو المجلس العلمي بمعهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر.
- مسؤول الكتابة بمكتب رئيس دائرة معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر.
- رئيس المجلس العلمي بمعهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر.
- عضو لجنة تقييم المخطوطات بالمؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (1975-1985).
- عضو لجنة تقييم المخطوطات بديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (1988-1990).
- مستشار الشؤون التعليمية لمدير معهد العلوم الشرعية

بمسقط، سلطنة عمان، في مناهج وبرامج الدراسات العليا (1992-1998).

- عضو اتحاد الكتاب الجزائريين (الجزائر).
- عضو في لجنة الفكر والثقافة التابعة لحزب جبهة التحرير الوطني (الجزائر).
- عضو إداري في تحرير مجلة الرسالة التابعة لوزارة الشؤون الدينية (الجزائر).
- عضو في لجنة تحرير مجلة الثقافة، وزارة الثقافة (الجزائر).
- رئيس المجلس العلمي لجمعية التراث، القرارة (الجزائر).
- نائب رئيس جمعية الحياة، القرارة (الجزائر).
- عضو هيئة العزابة (المجلس الديني لمسجد القرارة).
- عميد كلية المنار للدراسات الإسلامية، الحميز (الجزائر)، (2004-2008).
- عضو إداري في جمعية قدماء التلاميذ بالجزائر، والقرارة.
- رئيس المجلس العائلي (بابا صالح) آل ناصر.

- عضو إداري في عشيرة البلات (القرارة).

التكريمات والتقديرات:

- تكريم عشيرة البلات بمناسبة نيل دكتوراه الحلقة الثالثة، في صائفة 1972م.
- تكريم عشيرة البلات بمناسبة نيل دكتوراه الدولة، في ربيع 1984م.
- شهادة تقدير من رئاسة الجمهورية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر، 05 جويلية 1987م.
- تكريم المثقفين القراريين وجمعية أنغام الحياة، بمناسبة عرس ابنه مصطفى، القرارة في: 26 مارس 1988م.
- تكريم معهد العلوم الشرعية، بمسقط، سلطنة عمان، في ماي 1998م.
- شهادة تقدير من المثقفين القراريين بالعالية، الجزائر، في 17 ماي 2002م.
- تكريم من جمعية التراث ومسجد المنار ـ الحميز ـ في 20 ماي 2004م.
- تكريم من فناني وادي ميزاب، جويلية 2004م، بالقرارة بواحة (الشيحية).

- تكريم المجلس العائلي (بابا صالح)، ماي 2007م.
- شهادة تقدير في (أدب الطفل)، منحت له من جمعية الطفولة السعيدة بالعطف ـ غرداية ـ، في 26 مارس 2008م.
- وسام العالم الجزائري، معهد المناهج؛ في طبعته الثانية، جوان 2008م.
- تكريم جمعية ابن باديس، قسنطينة، 2016م.
- تكريم النادي الأدبي العماني من نزوى، الجزائر، 2017م.
- تكريم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة الشيخ محمد الهادي الحسني في: 26 جويلية 2017م.
- تكريم كلية الإصلاح للتربية والعلوم الإسلامية التابعة لمعهد الإصلاح للبنات، ضمن احتفالية لقاء الوفاء في طبعتها الخامسة، 26 مارس 2018م.
- تكريم جامعة غرداية في ملتقى د. محمد ناصر للأدب والنقد، غرداية والقرارة، أكتوبر 2018م.

الفهرس الموضوعي لمؤلفات الدكتور ناصر

الأدب والنقد

1. **المقالة الصحفية الجزائرية** (1903-1931م) جزآن ـ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م، ط.2 وزارة الثقافة، ديسمبر 2007م. ط.3، عالم المعرفة، 2013.
2. **الصحف العربية الجزائرية** (1847-1939م) الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ط.4، عالم المعرفة، 2013.
3. **الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية** (1952-1975م)، (رسالة دكتوراه)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985م. ط.3، عالم المعرفة، 2013.
4. **ما أحوجنا إلى أدب إسلامي** ـ سلطنة عمان، 1992م.
5. **الشعر الجزائري من الرومانسية إلى الثورية**، وزارة الثقافة، الجزائر، 2013.
6. **الأدب والنصوص للمرحلة الثالثة ثانوي** (معهد

القضاء الشرعي) ـ سلطنة عمان. 1992م. (طبع عدة مرات).

7. **خصائص الأدب الإسلامي** (مؤسسة الضامري) ـ سلطنة عمان، 1993.

8. **حداثة أم ردَّة؟** (مؤسسة الضامري) ـ سلطنة عمان، 1999.

9. **أدب الشراة، الخصائص والمقومات**، معدّ للطبع، 2013.

السير والأعلام

1. **أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزء الأول**، ط.2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984م، ط.4، عالم المعرفة، 2013م، ط.5، دار ناصر للنشر والتوزيع، 2018.

2. **أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزء الثاني**، ط.1، دار ناصر، 2018.

3. **عمر راسم، المصلح الثائر** ـ الجزائر: لافوميك، 1984م. ط.2، كولور، 2013، عالم المعرفة، 2013م.

4. **رمضان حمود (حياته وآثاره)**، ط.2 ـ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ط.3، عالم

المعرفة، 2013م.

5. **مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة**، ط.2 ـ الجزائر: جمعية التراث، 1989م، ط.3، عالم المعرفة، 2013م.

6. **أعلام الفكر والأدب في الجزائر** (معدّ للطبع)، 1987م.

7. **محمد بن الحسن بن دريد** ـ سلطنة عمان، 1991م.

8. **الإمام عبد الحميد بن باديس** (سلسلة أعلام الفكر) ـ الجزائر، 1991م.

9. **الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي** ـ الجزائر: 1991م، ط.2: مؤسسة الضامري ـ سلطنة عمان، 1991م، ط.4، عالم المعرفة، 2013م.

10. **مختارات من شعر الأمير عبد القادر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1984م.

11. **الشيخ إبراهيم اطفيش** (سلسلة أعلام الفكر) ـ الجزائر (معدّ للطباعة).

12. **الشيخ أبو اليقظان إبراهيم** (سلسلة أعلام الفكر).

13. **أبو مسلم الرواحي حسّان عمان**، مكتبة الاستقامة ـ سلطنة عمان، 1996م.

14. **مشايخي كما عرفتهم**، نشر مكتبة الريام، الجزائر،

2008م، ط.2، دار ناصر، 2013.

15. **الخليل بن أحمد الفراهيدي، العالم العبقري**، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005م.

16. **الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، أمير البيان**، ط.1، عالم المعرفة، 2013م.

تحقيق التراث

1. **أخبار الأئمة الرستميين (ابن الصغير)**، تحقيق بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم بحاز، ط.2 ـ الجزائر. جمعية التراث، 1989م.

2. **أعمالي في الثورة للشيخ إبراهيم بيوض**: إعداد وتقديم ـ الجزائر: جمعية التراث، 1989م. ط.3: مزيدة، جمعية التراث، القرارة، 2016.

3. **تلخيص القسمة وأصول الأرضين (في فقه العمارة الإسلامية)، (لأبي العباس أحمد بن بكر)**، تحقيق بالاشتراك مع الشيخ بكير بلحاج (باشعادل)، (مؤسسة الضامري)، 1993م.

4. **فواكه العلوم**، تأليف عبد الله بن محمد بن عامر الخنبشي، تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ مهني التواجيني ـ الأجزاء 1، 2، 3 ـ سلطنة عمان، 1995م.

الدراسات الفكرية والحضارية

1. **حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي**، ط.2 ـ الجزائر: جمعية التراث، 1989م.
2. **في رحاب القرآن (الشيخ إبراهيم بيُّوض)** ـ الجزائر: جمعية التراث، 1989م، ط.2، كولوريوم، الجزائر، 2013م.
3. **الإباضية تاريخا وفكرًا**، محاضرات مقررة بمعهد العلوم الشرعية لسنة 1992م، مخطوط، (لم ينشر).
4. **فيوض النور، أنوار من سورة النور**، جمعية التراث، الجزائر، الطبعة الثانية، سلطنة عمان، 1992م.
5. **الأصول العقدية للناشئة المحمدية**، (مؤسسة الضامري)، سلطنة عمان، 1993م.
6. **مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية**، في حلقتين: إعداد ونشر مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان ـ 1993م، ط.2، مركب المنار ـ الحميز، 2013. ط.4، مزيدة ومنقحة، دار ناصر، الجزائر، 2016.
7. **الشيخ محمد علي دبوز والمنهج الإسلامي لكتابة التاريخ**، (مطبعة البعث)، قسنطينة، الجزائر، 1995م، ط.2، عالم المعرفة، 2013م.

8. **مصادر البحث في العلوم الإسلامية**، (معهد القضاء الشرعي)، سلطنة عمان، 1995م.
9. **من أعلام الفكر الإباضي المعاصر**، (معد للطبع)، 1996م.
10. **تأملات في القرآن الكريم**، مكتبة الريام، الجزائر، 2005م.
11. **كيف تكتب بحثا جامعيا**، مكتبة الريام، الجزائر، 2005م.
12. **منهج البحث وتحقيق النصوص** (معهد القضاء الشرعي)، سلطنة عمان، 1995م، الطبعة الخامسة ـ الجزائر، 2005م.
13. **رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد**، بالاشتراك مع مجموعة من الباحثين، دار الأوائل، دمشق، 2006م.
14. **معجم أعلام الإباضية بالمشرق**، بالاشتراك مع الأستاذ سلطان بن مبارك الشيباني، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1427هـ ـ 2006م، (550 صفحة).
15. **منهج الدعوة عند الإباضية**، ط.2، نشر جمعية التراث، غرداية ـ الجزائر، 1995م، الطبعة الثالثة (مزيدة ومنقحة)، مكتبة الريام، الجزائر، 2007م،

الطبعة الرابعة (مزيدة ومنقحة)، مكتبة الريام، سنة 2011م، الطبعة السابعة، دار ناصر، 2018.

16. **المطبعة العربية، معلم وطني مجهول**، 1931-1963م، مكتبة الريام، الجزائر، 2008م.

17. **النضال السياسي بوادي ميزاب (الفرقد أنموذجا)**، مخطوط.

19. **أعلام وأقلام**. جزآن، دار ناصر، 2017م.

20. **ذكرياتي ومذكراتي**، جزآن، دار ناصر للتوزيع والنشر، ط.1، 2013م.

21. **ذكرياتي ومذكراتي**، الجزء الثالث، معدّ للطبع، دار ناصر للتوزيع والنشر، 2019م.

22. **الابتلاء مدرسة الأنبياء**، مسجد المنار، الجزائر، 2016م.

23. **من الهدي المحمدي**، دار ناصر، الجزائر، 2011م.

24. **مع كلام رب العالمين**، الجزء الأول، جمعية التراث، القرارة، 2014م.

25. **مع كلام رب العالمين**، الجزء الثاني، جمعية التراث، القرارة، 2017م.

26. **وصية والدٍ لولده العروس**، ط.2، الجزائر، 1995م.

القصائد والدواوين الشعرية

1. **أغنيات النخيل**، 19 قصيدة، ما بين: 1963-1980م، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
2. **ملحمة الجزائر**، قصيدة شعرية مطولة ـ بالعربية الدارجة ـ في وصف ولايات الوطن الجزائري، 1983م، (تم تلحينها مؤخرا من بليدي جابر وأداء فرصوص يونس وفرقته).
3. **البراعم الندية**، شعر وأناشيد للأطفال، 9 قصائد، ما بين 1980-1984م، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م. الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، دار ناصر، الجزائر، 2016م.
4. **في رحاب الله**، 18 قصيدة ما بين 1980-1990م، نشر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية ـ الجزائر، 1991م.
5. **ألحان وأشجان**، 18 قصيدة ما بين 1991-1993م، نشر جمعية التراث، غرداية ـ الجزائر، 1995م.
6. **الخافق الصادق**، حوالي 40 قصيدة ما بين: 1995-2008م، دار الريام، 2009م.

7. **الأعمال الشعرية الكاملة**، دار الريام، الجزائر، ط.1، 2010م.

8. **وحي الضمير في واحة زقرير**، حوالي 30 قصيدة و18 نشيدا (1955-1962م)، وهو يحوي على قصائد نشرها الدكتور في طور التحصيل بمعهد الحياة، منها 15 نشيدا بالفصحى والدارجة والميزابية، نشر جمعية التراث، غرداية ـ الجزائر، 2016م.

9. **بعد الغسق يأتي الفلق**، 70 قصيدة، ما بين 2010-2018م، الطبعة الأولى، دار ناصر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018م.

الترجمة من الفرنسية إلى العربية

1. **ترجمة بحث موتلانسكي (عن أخبار الأئمة الرستميين)**، منشورة بكتاب: **أخبار الأئمة الرستميين**، دار الغرب الإسلامي، 1986م.

2. **ترجمة مقال (مالك بن نبي في ضيافة ميزاب)** الصادر في مجلة: **الثورة الإفريقية**، تحت عنوان: **(Invitation du Mzab)** ع.247، 20-26 ماي 1968م، (يُنظر كتابه عن **دور الإباضية في الحضارة الإسلامية**، نشر بسلطنة عمان، 1993م).

3. **ترجمة تقارير البوليس الفرنسي عن: (الشيخ بيوض**

والشيخ أبي اليقظان)، (منشور من **الشيخ بيوض مُصلحا وزعيما** ـ الجزائر، 2005م).

4. **ترجمة مقال عبد الله بن طوبال عن: (دور الشيخ بيوض في الثورة التحريرية)**، (منشور بكتابه: **الشيخ بيوض مصلحا وزعيما** ـ الجزائر، 2005م).

أدب الطفل

أولا [1]:

1. جزاء الإحسان
2. في الاتحاد قوة
3. عاقبة الغرور
4. نهاية الطيش (الفراشة وأمها)
5. يد الله مع الجماعة (الغزال الشارد)
6. نعمة الأمن (الوعول والكبش)
7. احفظ لسانك (الثعلب والديك)
8. السيئة بمثلها (الحمامة والثعلب)

(1) عنوان السلسة: **القصص المربي للأطفال**، ط.1: سلطنة عمان، 1992م، ط.2، نشر شركة ترانسباب، الجزائر، 2002م. ط.3، نشر دار ناصر للنشر والتوزيع 2013م.

9. عاقبة الكبر (الضفدع المغرور)
10. وتعاونوا (الحمامة والجرد)
11. اعمل ساكتا (النمل والصرصور)
12. ما بالطبع لا يتبدل (الثعلب الناسك)
13. حسن التدبير (السمكات الثلاث)
14. لا تصدق كل ما يقال (الأسد والجمل)
15. صديق الشدة (الأسد والجرذان)
16. جزاء الصابر (قمر وزوجة الأب)

ثانيا[1]:

1. جزاء الإحسان
2. عاقبة الغدر
3. حقوق الجيران
4. التاجر الرحيم
5. أصدقاء الشدة
6. أجر المحسنين

(1) عنوان السلسلة: **القصص المربي للفتيان**، صادرة عن مكتبة الريام بالجزائر، 2002م، غار حراء، دمشق، 2005م، ووزارة الشؤون الدينية (سلطنة عمان، 2007م.

7. الوفاء بالعهد
8. تهادوا تحابوا
9. الكلمة الطيبة
10. لا يأس من رحمة الله

ثالثا[1]:

1. بر الوالدين
2. عقوق الوالدين
3. إنما الأعمال بالنيات
4. الإيثار
5. المشورة
6. المتكبر والمتواضع
7. المظاهر الخداعة
8. الرفق بالحيوان
9. الطائر الحكيم
10. وافق شن طبقة

(1) عنوان السلسلة: **الأنيس للفتيان** - صدرت عن مكتبة الريام - الجزائر، 2004م.

رابعا[1]:

1. اللقلق الماكر
2. القرد الطماع (2)
3. الفأر المغرور (2)
4. الفيل الظالم (2)
5. الفأر الكذاب

خامسا[2]:

1. آدم أبو البشر
2. الخروج من الجنة
3. نوح شيخ المرسلين
4. عاد قوم هود
5. ثمود قوم صالح
6. خليل الله إبراهيم (1)
7. خليل الله إبراهيم (2)
8. إسماعيل الصادق

(1) عنوان السلسلة : **الأنيس للأطفال**، مكتبة الريام، الجزائر، 2004م.

(2) عنوان السلسلة: **القصص الحق للنشء الإسلامي**، صادرة عن مكتبة الريام، الجزائر، ووزارة الشؤون الدينية، سلطنة عمان، 2004م.

9. قوم لوط
10. شعيب خطيب الأنبياء
11. يوسف الصديق من (1-5)
12. موسى وفرعون
13. موسى كليم الله
14. موسى في مواجهة فرعون
15. نهاية فرعون
16. موسى وبنو إسرائيل
17. بقرة بني إسرائيل
18. موسى والعبد الصالح (1-2)
19. أيوب سيد الصابرين (1-2)
20. طالوت وجالوت
21. داود ذو الأيد
22. سليمان الحكيم
23. سليمان وبلقيس
24. يونس ذو النون
25. يحي بن زكرياء

26. عيسى بن مريم

27. رمضان حمود الشاعر الثائر، سلسلة أدب الفتوة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2005م.

28. أبو إسحاق اطفيش، صوت الجزائر في المنفى، سلسلة أدب الفتوة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2006م.

29. عمر راسم (الموسوعة التاريخية للشباب)، الجزائر، 1984م.

30. أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الموسوعة التاريخية للشباب، الجزائر، 1984م.

مؤلفات الدكتور ناصر (ترتيب ألفبائي)

1. الإباضية تاريخا وفكرًا.
2. الابتلاء مدرسة الأنبياء.
3. أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزء الأول.
4. أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزء الثاني.
5. أبو مسلم الرواحي حسّان عمان.
6. أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير (تحقيق).
7. أدب الشراة، الخصائص والمقومات.
8. الأدب والنصوص للمرحلة الثالثة ثانوي.
9. الأصول العقدية للناشئة المحمدية.
10. أعلام الفكر والأدب في الجزائر.
11. أعلام وأقلام.
12. الأعمال الشعرية الكاملة (شعر).
13. أعمالي في الثورة للشيخ إبراهيم بيوض.
14. أغنيات النخيل (شعر).

15. ألحان وأشجان (شعر).
16. الإمام عبد الحميد بن باديس.
17. البراعم الندية (شعر).
18. بعد الغسق يأتي الفلق (شعر).
19. تأملات في القرآن الكريم.
20. تلخيص القسمة وأصول الأرضين لأبي العباس (تحقيق).
21. حداثة أم ردَّة؟
22. حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي.
23. الخافق الصادق (شعر).
24. خصائص الأدب الإسلامي.
25. الخليل بن أحمد الفراهيدي، العالم العبقري.
26. ذكرياتي ومذكراتي (الجزء 1-2).
27. ذكرياتي ومذكراتي (ج3).
28. رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد (بالاشتراك).
29. رمضان حمود (حياته وآثاره).
30. الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1952-1975م).

31. الشعر الجزائري من الرومانسية إلى الثورية.
32. الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي.
33. الشيخ إبراهيم اطفيش.
34. الشيخ أبو اليقظان إبراهيم.
35. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، أمير البيان.
36. الشيخ محمد علي دبوز والمنهج الإسلامي لكتابة التاريخ.
37. الصحف العربية الجزائرية (1847-1939م).
38. عمر راسم المصلح الثائر.
39. فواكه العلوم للخنبشي (تحقيق).
40. في رحاب القرآن (الشيخ إبراهيم بيُّوض).
41. في رحاب الله (شعر).
42. فيوض النور، أنوار من سورة النور.
43. كيف تكتب بحثا جامعيا.
44. ما أحوجنا إلى أدب إسلامي.
45. محمد بن الحسن بن دريد.
46. مختارات من شعر الأمير عبد القادر.
47. مشايخي كما عرفتهم.

48. مصادر البحث في العلوم الإسلامية.
49. المطبعة العربية معلم وطني مجهول (1931-1963م).
50. مع كلام رب العالمين، الجزء الأول.
51. مع كلام رب العالمين، الجزء الثاني.
52. معجم أعلام الإباضية بالمشرق (بالاشتراك).
53. مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة.
54. المقالة الصحفية الجزائرية (1903-1931م).
55. مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية.
56. ملحمة الجزائر (شعر).
57. من أعلام الفكر الإباضي المعاصر.
58. من الهدي المحمدي.
59. منهج البحث وتحقيق النصوص.
60. منهج الدعوة عند الإباضية.
61. النضال السياسي بوادي ميزاب (الفرقد أنموذجا).
62. وحي الضمير في واحة زقرير (شعر).
63. وصية والد لولده العروس.

أدب الطفل (ترتيب ألفبائي)

1. أبو إسحاق اطفيش صوت الجزائر في المنفى (أدب الفتوة).
2. أبو اليقظان وجهاد الكلمة (الموسوعة التاريخية للشباب).
3. أجر المحسنين (القصص المربي للفتيان).
4. احفظ لسانك: الثعلب والديك (القصص المربي للأطفال).
5. آدم أبو البشر (القصص الحق).
6. إسماعيل الصادق (القصص الحق).
7. أصدقاء الشدة (القصص المربي للفتيان).
8. اعمل ساكتا: النمل والصرصور (القصص المربي للأطفال).
9. إنما الأعمال بالنيات (الأنيس للفتيان).
10. الإيثار (الأنيس للفتيان).
11. أيوب سيد الصابرين: 1-2 (القصص الحق).
12. بر الوالدين (الأنيس للفتيان).
13. بقرة بني إسرائيل (القصص الحق).
14. التاجر الرحيم (القصص المربي للفتيان).

15. تهادوا تحابوا (القصص المربي للفتيان).
16. ثمود قوم صالح (القصص الحق).
17. جزاء الإحسان (القصص المربي للأطفال).
18. جزاء الإحسان (القصص المربي للفتيان).
19. جزاء الصابر: قمر وزوجة الأب (القصص المربي للأطفال).
20. حسن التدبير: السمكات الثلاث (القصص المربي للأطفال).
21. حقوق الجيران (القصص المربي للفتيان).
22. الخروج من الجنة (القصص الحق).
23. خليل الله إبراهيم: 1-2 (القصص الحق).
24. داود ذو الأيد (القصص الحق).
25. الرفق بالحيوان (الأنيس للفتيان).
26. رمضان حمود الشاعر الثائر (أدب الفتوة).
27. سليمان الحكيم (القصص الحق).
28. سليمان وبلقيس (القصص الحق).
29. السيئة بمثلها: الحمامة والثعلب (القصص المربي للأطفال).
30. شعيب خطيب الأنبياء (القصص الحق).
31. صديق الشدة: الأسد والجرذان (القصص المربي للأطفال).
32. طالوت وجالوت (القصص الحق).
33. الطائر الحكيم (الأنيس للفتيان).

34. عاد قوم هود (القصص الحق).
35. عاقبة الغدر (القصص المربي للفتيان).
36. عاقبة الغرور (القصص المربي للأطفال).
37. عاقبة الكبر: الضفدع المغرور (القصص المربي للأطفال).
38. عقوق الوالدين (الأنيس للفتيان).
39. عمر راسم (الموسوعة التاريخية للشباب).
40. عيسى بن مريم (القصص الحق).
41. الفأر الكذاب (الأنيس للفتيان).
42. الفأر المغرور 1-2 (الأنيس للفتيان).
43. في الاتحاد قوة (القصص المربي للأطفال).
44. الفيل الظالم 1-2 (الأنيس للفتيان).
45. القرد الطماع: 1-2 (الأنيس للفتيان).
46. قوم لوط (القصص الحق).
47. الكلمة الطيبة (القصص المربي للفتيان).
48. لا تصدق كل ما يقال: الأسد والجمل (القصص المربي للأطفال).
49. لا يأس من رحمة الله (القصص المربي للفتيان).
50. اللقلق الماكر (الأنيس للفتيان).
51. ما بالطبع لا يتبدل: الثعلب الناسك (القصص المربي للأطفال).
52. المتكبر والمتواضع (الأنيس للفتيان).
53. المشورة (الأنيس للفتيان).

54. المظاهر الخداعة (الأنيس للفتيان).
55. موسى في مواجهة فرعون (القصص الحق).
56. موسى كليم الله (القصص الحق).
57. موسى والعبد الصالح: 1-2 (القصص الحق).
58. موسى وبنو إسرائيل (القصص الحق).
59. موسى وفرعون (القصص الحق).
60. نعمة الأمن: الوعول والكبش (القصص المربي للأطفال).
61. نهاية الطيش: الفراشة وأمها (القصص المربي للأطفال).
62. نهاية فرعون (القصص الحق).
63. نوح شيخ المرسلين (القصص الحق).
64. وافق شن طبقة (الأنيس للفتيان).
65. وتعاونوا: الحمامة والجرذ (القصص المربي للأطفال).
66. الوفاء بالعهد (القصص المربي للفتيان).
67. يحيى بن زكرياء (القصص الحق).
68. يد الله مع الجماعة: الغزال الشارد (القصص المربي للأطفال).
69. يوسف الصديق: 1-5 (القصص الحق).
70. يونس ذو النون (القصص الحق).